مصر بين حملتي لويس ونابليون

دكتور
فرج محمد الوصيف
أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية بكلية أصول الدين والدعوة
جامعة الأزهر

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

دار الكلمة للنشر والتوزيع - مصر - المنصورة

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م



دار الكلمة للنشر والتوزيع - مصر - المنصورة

٣٨ ش الثورة (السكة الجديدة) ت ، ف: ٣٤٣١١٥ ص. ب:١٦٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبى الأمى الكـريم ، وعلى آله وصحبه الغُر الميامين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، أما بعد :

فإن أفضل ما تعتز به أمة – أى أمة – ذاكرتـها التى تمثل أصالتـها العقدية والفكرية والأخلاقية والتاريخية وبالتالى هويتها العصرية التى تكسبها مكانتها علـى سطح المعمورة بين الأمم .

وفى المقابل فإن أخطر ما تواجه به الأمة – أى أمة – أن تُضرب فى ذاكرتـها ممن؟ من أعدائها أو أبنائها أنفسهم الذين يسعون تحت شعارات ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب لتضييع هويتها ، وإذابتها فى غيرها من الأمم الأخرى .

فطن أعداء الإسلام لذلك منذ زمن بعيد ، فحاكوا له ولأتباعه المؤامرات تلـو المؤامرات ، وحاولوا تنفيذها بوسائل متعددة فى ديار المسلمين حتى تمحى عن أمـة الإسلام شخصيتها الحضارية العالمية التى جعلت لـها مكانة مرموقة على سـطح المعمورة بفضل هذا الدين ، وصدق الله إذ يقول :﴿ **وكذلك جعلناكم أُمَّةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكونَ الرسولُ عليكم شهيدا**﴾[1] ويقـول: ﴿ **كنتم خير أمة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهَون عن المنكر وتؤمنـون بالله ..** ﴾[2].

---

[1] البقرة آية (١٤٣) .

[2] آل عمران آية (١١٠) .

تميزت أمة الإسلام بهذه الشخصية حين كانت متمسكة بشرع ربها ، وبرزت مكانتها على الساحة العالمية ، وكان لمصر النصيب الوافر من هذه المكانة، لذا كانت محط نظر الأعداء وموضع أطماعهم المتعددة ، فنالت من الكيد والتآمر ما يوازن مكانتها فى العالم الإسلامى . ظهر ذلك فى حلقات من سلسلة التآمر والكيد الصليبى على مراحل زمنية مختلفة ، منها حلقة الكيد الذى وضع مخططه على أرض مصر "لويس التاسع" الذى قاومه أبناء الأمة باسم الإسلام فانتصروا على جيشه الصليبى وأُسر بدار "فخر الدين بن لقمان" بالمنصورة ، وضع هذا الصليبى الحاقد مخططه كى تسير عليه الدول الغربية الصليبية وتحقق ما لم يحققه هو وأسلافه الصليبيون . وبالفعل سار الأخلاف على ما وضعه الأب الروحى والعسكرى القديس "لويس التاسع" ، وسنحت الفرصة فى العصر الحديث بغزو الفرنسيين مصر مرة أخرى بقيادة الصليبى المتغطرس "نابليون" وتمكنهم زمنا من ديار الإسلام ، وكان من آثار هذا الغزو العسكرى الفكرى تكوين طابور خامس من أبناء المسلمين لصنع ما لم يقدروا هم عليه بعد رحيلهم ، فصارت لهم فى ديار المسلمين كتائب فكرية متعددة تعمل لحساب الأعداء – صليبين ويهوداً – وتولى وجهها شطره ، وجعلت من همها مسخ هوية الأمة الإسلامية لتذوب فى الغرب الصليبى من خلال المؤسسات المختلفة فى ديارنا الإسلامية ولا سيما فى أرض الكنانة مصر (بلد الأزهر!) .

والواجب على المسلم المعاصر أن يفطن لهذا الخطر الذى تعرضت له وتعيشه اليوم أمته على أيدى الأعداء والأدعياء على السواء حتى يكون على بينة من الأمر ويسعى قدر جهده لإزالته وحتى يكون لبنة إيجابية فى المجتمع لا منزويا عن الأحداث ولا تابعا ، فما هكذا يكون المسلم .

لأجل ذلك كان هذا الكتاب الذى بين يديك – أخى القارئ – الذى تعرض

لحملتين من الحملات الصليبية على ديارنا الإسلامية وما نتج عنهما من آثار خطيرة على حياتنا ولاسيما –أبناء مصر– الأولى مُؤسِّسَة ومُنَظِّرَة وهى حملـــة "لويـــس التاسع" فى القرن السابع الـــهجرى (الثالث عشر الميلادى) والثانية مُنَفِّذَة للتنظـير وهى حملة "نابليون بونابرت" فى القرن التالث عشر الـــهجرى (الثـــامن عشـــر الميلادى) وما نتج عنها من آثار تتجرع الأمة سمومها القاتلة حتى الآن .

والله أسأل أن ينفع بـــهذا العمل صاحبه وأن يغفر له زلاتـــه ، إنه علـــى مـــا يشاء قدير وللإجابة سميع مجيب .

المؤلف

أ.د. فرج محمد إبراهيم الوصيف

منية النصر – دقهلية

تمهيد

تميز الإسلام – وهو دين الله الباقى حتى الآن وإلى أن تقوم الساعة الذى لم تمتد إليه يد التحريف والتغيير- بشموله وعالميته .

شمول الدين :

الإسلام دين كامل شامل استوعب شؤون الحياة جميعها للفرد والمجتمع على السواء ، ما ترك صغيرة ولا كبيرة إلا تناولها إما بالنص الصريح فى مصدريه الكتاب والسنة ، وإما بالتوجيه والإرشاد الكلى العام ، قال تعالى :﴿**ونزلنا عليك الكتاب تِبيانا لكل شئ**﴾[١] ، وقال تعالى : ﴿**ما فرَّطنا فى الكتاب من شئ**﴾[٢] وقال تعالى : ﴿**وكل شئ فصلناه تفصيلا**﴾[٣] .

هذا الشمول أكسب المجتمع المسلم هوية ذات شخصية مستقلة قائمة بذاتها دون أن يكون أبناؤه ذيولا تابعين لغيرهم ، بل رؤوساً متبوعين يؤخذ عنهم ؛ لأنهم بالإسلام صار لهم وجود حضارى على وجه الأرض .

وصدق الله إذ يقول :﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ، ويكونَ الرسولُ عليكم شهيدا**﴾[٤] ويقول : ﴿ **لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون** ﴾[٥] .

---

[١] النحل آية (٨٩) .

[٢] الأنعام آية (٣٨) .

[٣] الإسراء آية (١٢) .

[٤] البقرة آية (١٤٣) .

[٥] الأنبياء آية (١٠) .

فبالإسلام صار للأمة ذكر وشرف وحياة سعيدة طيبة تبوأت بها مكانتها بين الأمم .

عالمية الإسلام :

وإذا كان الإسلام دينا كاملا شاملا أكسب معتنقيه هذه الميزة ، فهو أيضا دين عالمى عام جاء لكل الناس فى كل مكان ولكل زمان ، ما جاء لبقعة معينة ولا لزمان معين ولا لأناس بعينهم ، إنما جاء ليكون رسالة الله الخاتمة للجميع ، قال تعالى : ﴿**وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ..**﴾[1] ، وقال تعالى :﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾[2] ، وقال تعالى :﴿**قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته ..**﴾[3] .

وقال رسول الله ﷺ : « **وكان النبى يُبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة**»[4].

هذه خصيصة للإسلام عرف بها من يوم أن بعث الله رسولهﷺ ، وعلى أساسها قامت الدولة الإسلامية الأولى بالمدينة ، وعلى أساسها أيضاً كان إرسال الرسول ﷺ كتبَه إلى الملوك والقواد ورؤساء الأديان يدعوهم إلى الإسلام .

فعن أنس رضى الله عنه أن نبى الله ﷺ :« كتب إلى كسرى ، وإلى قيصر ، وإلى النجاشى وإلى كل جبار ، يدعوهم إلى الله تعالى ، وليس بالنجاشى الذى صلى عليه النبى ﷺ »[5].

---

(1) سبأ آية (٢٨) .

(2) الأنبياء آية (١٠٧) .

(3) الأعراف آية (١٥٨) .

(4) البخارى على الفتح ٥١٩/١ . كتاب التيمم . دار الريان للتراث . القاهرة . الأولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.

(5) مسلم بشرح النووى ١١٢/١٢ . دار الريان للتراث . القاهرة . الأولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

كما كان الانتشار فى كل مكان تعميراً للأرض وتمديناً للناس وتنويراً للعقـــول وإخراجاً للبشر من ظلمات الكفر والجهل والسلوك المعوج والمفاهيم المغلوطة ، قال تعالى :﴿ **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانـــه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النـــور بإذنـــه ويهديـــهم إلى صـــراط مستقيم .** ﴾ [١]

وعبر عن ذلك أحد الدعاة الفاتحين ربعى بن عامر رضى الله عنه فقال لرســـتم الرجل الثانى بعد يزدجرد ملك الفرس حين سأله : " ما جاء بكـــم ؟ قـــال : الله ابتعثنا ، والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيـــق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقـــه لندعوهم إليه ، فمن قبِل منا ذلك قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه ، وتركنـــاه وأرضـــه يليها دوننا ، ومَن أَبى قاتلناه أبداً حتى نفضى إلى موعود الله . قال : وما موعـــود الله؟ قال : الجنة لمن مات على قتال من أبى ، والظفر لمن بقى ."[٢] .

وحقق الله تعالى للصحابة موعوده بالحســنيين ، فمكَّـــن لـــهم فى الأرض ، ونشروا النور فى كل مكان حلوا فيه ، وولد الناس فى البلاد التى فتحت بالإســـلام من جديد ، الإسلام الذى أعاد لـــهم إنسانيتهم وكرامتهم التى أهدرت على أيدى طغاة البشر ، وتنسموا الحياة الكريمة التى قال الله عنها : ﴿ **يا أيها الذيـــن آمنـــوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم..**﴾[٣] فأنعم بـــها من حياة تحـــت سقف دولة الإسلام وبه .

---

[١] المائدة : آية (١٥،١٦) .

[٢] تاريخ الرسل والملوك للطبرى ٥٢٠/٣ . دار المعارف . الثالثة . بدون .

[٣] الأنفال : آية (٢٤) .

مكانة مصر بالإسلام:

ومن البلاد التي نعمت بالنور الإلـهي مصر التي قدر الإسلام لـها مكانـها ومكانتها ، كيف لا وقد أشاد القرآن الكريم بـها في أكثر من موضع ، حتى لقد ورد ذكرها في القرآن صراحةً وكنايةً – على ما ذكر السيوطي – أكثر من ثلاثين مرة [١].

وأشاد الرسول ﷺ بـها وبأهلها في أحاديث بروايات متعددة ، من ذلك قوله ﷺ : « **إنكم ستفتحون مصر ، وهي أرض يسمى فيها القيراط ، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها ، فإن لـهم ذمةً ورحماً – أو قال : ذِمَّةً وصِهراً..** » [٢] .

قال النووي في شرحه للحديث : " قال العلماء : القيراط جزء من أجزاء الدينار والدرهم وغيرهما ، وكان أهل مصر يكثرون من استعماله والتكلم به . وأما الذمة فهي الحرمة والحق ، وهي هنا بمعنى الذمام . وأما الرحم فلكون هاجر أم إسماعيل منهم . وأما الصهر فلكون مارية أم إبراهيم منهم .

وفيه معجزات ظاهرة لرسول الله ﷺ ، منها إخباره بأن الأمة تكون لـهم قوة وشوكة بعده بحيث يقهرون العجم والجبابرة ، ومنها أنـهم يفتحون مصر ." [٣].

وقال ﷺ : « **إذا فتح الله عليكم مصر ، فاتخذوا فيها جندا كثيفا ؛ فذلك الجند خير أجناد الأرض** » ، فقال أبوبكر رضي الله عنه : ولِمَ يا رسول الله قال : « **لأنـهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة** » [٤].

---

[١] حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ١/٥-٩ . عيسى الحلبي . الأولى ١٣٨٧هـ/١٩٦٨م .

[٢] مسلم بشرح النووي ٩٧/١٦ . كتاب الفضائل . باب وصية النبي ﷺ بأهل مصر .

[٣] النووي على مسلم ٩٧/١٦ .

[٤] أخرجه ابن عبد الحكم وهو في حسن المحاضرة ١٤/١-١٥ .

انظر – يا رعاك الله – فى هذا الحديث وتأمله جيداً ، وكيف أمر الرسول ﷺ فيه باتخاذ الجند الكثيف من مصر ، وكيف أنهم خير أجناد الأرض ، وكيف أنهم فى حالة تأهب دائم واستعداد لرد أى هجوم عدوانى على البلاد واعتقاد وأفكار العباد ؛ لأنهم فى "رباط" الذى يفيد الجد والنشاط والترقب وعدم التراخى ، إذ مصر بأهلها وأرضها موضع طمع الأعداء . وهذا يريك أنها بالإسلام وبالجهاد فى سبيل الله فى أمن وأمان ولها ميزة وفضل على غيرها .

ثم انظر كيف جمع فى الحديث بين الرجل والمرأة إشارة إلى أن المرأة المسلمة لها فى مجتمعها كيان ، ولها فيه دور لا يقل عن دور الرجل فى رفعة شأن الأمة ، فهى ليست كما صورتها الحضارة الغربية المادية المعاصرة ملهاة يتلهى بها فى الأماكن العامة والخاصة ، وليست أداة إفساد فى المجتمع بالتبرج والسفور والغناء الماجن والأفكار المستوردة المسمومة ، إنما هى بالإسلام الذى تلتزم به شقيقة الرجل فى إسعاد البيت والمجتمع .

ولم ينس الصحابة رضوان الله عليهم مكانة مصر ، فأثنى عليها من شاهدها منهم وعرف طبيعتها وطبيعة أهلها .

قال على رضى الله عنه وهو يعدد مآثر بعض البلدان :" والنجباء بمصر" .

وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : " قبط مصر أكرم الأعاجم كلها ، وأسمحهم يداً ، وأفضلهم عنصراً ، وأقربهم رحماً بالعرب عامةً ، وبقريش خاصةً. ومن أراد أن يذكر الفردوس ، أو ينظر إلى مثلها فى الدنيا فلينظر إلى أرض مصر حين يخضر زرعها ، وتزهر ثمارها ."[1] .

وهذه الصفات جعلتهم أقرب الناس إلى الإسلام وأسرعهم فى اعتناقه والذود عن حياضه ، وصدق رسول الله ﷺ الذى قال : « **تجدون الناس معادن ،**

---

[1] حسن المحاضرة ١/١٨ .

فخيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا ..»[1] .

وقد أثبت الواقع العملى ذلك على مدى التاريخ منذ فتحها الصحابة بقيادة عمرو بن العاص رضوان الله تعالى عليهم . ففى الوقت الذى أحس فيه الأعداء بالضعف الذى أصاب العالم الإسلامى نظرا لتشرذمه شيعا وأحزابا وتشرذم دياره ، وجدوا الفرصة سانحة للانقضاض على أرضه واستئصال شأفة أتباعه ، والاستيلاء على الأماكن المقدسة وهدمها ، فبدأ زحفه الصليبى على فترات زمنية متقاربة فى حملات عسكرية متعددة ، كان للعصر الأيوبى نصيب الأسد منها ، إذ ابتدأ الأيوبيون حكمهم بالحملة الصليبية الثانية التى منى الصليبيون فيها بهزيمة منكرة فى موقعة حطين عام (٥٨٣هـ/١١٨٧م) على يد القائد المسلم صلاح الدين الأيوبى ، وانتهى بنهاية الحملة الصليبية السابعة التى لا تقل فى أهميتها وخطورتها عن الحملة الصليبية الثانية . ولهذا سنحط رحالنا عندها ونفرد لها الحديث فى الصفحات التالية من الفصل الأول فى هذا الكتاب .



(١) مسلم بشرح النووى ٧٨/١٦ . كتاب الفضائل . باب خيار الناس .

الفصل الأول

حملة لويس

" الحملة الصليبية السابعة "

تعد الحملة الصليبية السابعة من أخطر الحملات الصليبية التى تعرض لها العالم الإسلامى نظراً للآثار السيئة التى نتجت عنها والتى سوف تتضح فيما بعد ، وحين الفراغ من الحديث عنها فى هذا الفصل .

تجريد الحملة بقيادة لويس :

دعا البابا "أنوسنت الرابع" عام (١٢٤٥م) فى المؤتمر الروحى الذى انعقد بمدينة "ليون" إلى تجريد حملة صليبية بغرض انتزاع بيت المقدس من أيدى المسلمين، ووقع اختياره على ملك فرنسا القديس "لويس التاسع" البالغ من العمر آنذاك (٣٥) سنة ليكون القائد لهذه الحملة فسُرَّ "لويس" لذلك ، وأعد عدته المكونة من ثمانين ألف جندى من خيرة جنود فرنسا ، وفيهم أمراء كثيرون وأخو الملك وزوجته ، وأبحر فى (١٨٠٠) سفينة متجهاً أولا إلى قبرص ليمكث بها فترة الشتاء ، فرحب به ملكها حقداً على الإسلام وأهله .

وأمده بمال وعتاد ، وراسل "لويس" من هناك التتار الذين زحفوا من الجهة المقابلة "الشرقية" على ديار المسلمين ، لكن لم تنجح المراسلات فى عقد تحالف بين الشيطانين وذلك من لطف الله بالمسلمين .

الاتجاه إلى مصر :

ومن قبرص أبحر "لويس" بجيشه قاصداً مصر أولاً ، لعلمه أنها بوابة العالم

الإسلامى ، وقلبه النابض ، وعقله المدبر ، وذراعه القوى الطويل ، فلا سبيل إلى بلد إسلامى إلا بمصر أولاً ، فقصدها والحقد يملأ قلبه على أبطال المسلمين ودعاتهم الذين وصلوا فى نهاية القرن الأول الهجرى عن طريق الأندلس إلى فرنسا ذاتها ففتحوا معظمها واستولوا على مدينة "صانص" حتى كان بين الجيش الإسلامى وبين العاصمة "باريس" مائة ميل فقط .

ولم ينس "لويس" وجيشه موقعة "بلاط الشهداء" أو "توربواتييه" التى دارت رحاها فى قلب فرنسا عام (١١٤هـ/٧٣٢م) ، فسقط القائد المسلم عبد الرحمن الغافقى شهيداً فى المعركة ، وهُزم المسلمون لأول مرة على أيدى آباء لويس الأولين بقيادة "كارل مارتل" لابميزة فى جيش مارتل ولكن للخلافات التى سادت فى صف الجيش الإسلامى وانشغال الجنود بالغنائم ، فتوقف الزحف الإسلامى صوب أوروبا رغم بقاء الإسلام فى فرنسا مدى قرنين من الزمان على ما صرح به "لوبون" [١].

ووصل إلى المياه المصرية فى (٢١ صفر٦٤٧هـ/٥يونيه ١٢٤٩م) ، ونزل إلى البر فى اليوم التالى ، واشتبك مع الحامية المصرية التى فوجئت بوصوله ، فلم تصمد أمام القوة الغازية وفرت فى جنح الظلام نحو الجنوب . وانتهزها "لويس" فرصة فدخل بقواته دمياط ، وأعمل فيها النهب والسلب ، واغتصبوا النساء وقتلوا الشيوخ والأطفال ، وحولوا جامعها إلى كنيسة أطلقوا عليها اسم "نوتردام" أى مريم العذراء وعين لويس لها بطرقاً كاثوليكيا .

وبعد أن استقر بالمدينة أرسل كتاباً إلى الملك الصالح "نجم الدين أيوب" الذى

---

[١] راجع فى معركة بلاط الشهداء مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام . محمد عبد الله عنان ص١٤٣ –١٥١ . الخانجى . الرابعة . ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م ، دولة الإسلام فى الأندلس من الفتح إلى بداية عهد الناصر . لنفس المؤلف ٣٨/١–٦١ . مكتبة الخانجى . الرابعة ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م ، حضارة العرب . غوستاف لوبون . ص٢٨٣–٣٢٢ ، ص ٣٣٨–٣٦٨ . ترجمة عادل زعيتر . لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٥م .

كان بالشام يهدده فيه بالتسليم لعدم جدوى المقاومة ، وأنه سيسوق مسلمى الأندلس سوق البقر وسينضمون إليه ، وسيقضى عليهم إلى آخر ما فى الكتاب من غطرسة وتهديد ، وهو نوع من حرب الأعصاب التى سلكها المغول فى زحفهم على ديار الإسلام كى يفتوا فى أعضاد المسلمين .

فكان جواب الملك الصالح الذى وُجِم لما أصاب الحامية وحزن حزناً شديداً لما حدث فى دمياط : عدم الاكتراث بتهديدات "لويس" ، وإنذاره وجنوده بسوء المصير .

وراسل الملك "فريدريك" ملك ألمانيا مستغلاً العلاقة الحسنة التى كانت بينهما والخلاف الذى كان بينه وبين لويس فحصل منه على دعم مادى .

ثم خَفَّ سريعاً محمولا – فى محفته لمرضه – من الشام إلى مصر ماراً بالصالحية ثم بفاقوس ، حتى وصل إلى المنصورة [١] التى بناها أبوه الملك الكامل من قبل عام (٦١٥هـ /١٢١٨م) أثناء الحملة الصليبية الخامسة ، فعسكر على البحر الصغير عند أشموم "طناح"[٢] فى قواته ، حتى يكون فى مقابلة قوات الصليبيين حين قدومهم من دمياط . كما أقام معسكراً قرب القصر السلطانى على النيل فى المكان الذى أطلق عليه شجرة الدر[٣] .

وكان بجواره فى هذا الظرف العصيب زوجته شجرة الدر"أم خليل" التى تحولت من جارية عادية إلى زوجة حظية ، تنصح له وتساعده فيما يحتاج إليه وتبث فيه وفى قواده روح القوة والإقدام ، فكان لهذا أثره الطيب فى سير المعركة ، فانظر ما فعله الإسلام بهذه المرأة ، حيث حولها من مخلوق يتمتع به إلى زوجة ذات عقل رشيد ورأى سديد وتدبير محكم لصالح العباد والبلاد ، لقد كانت مع

---

[١] سميت بذلك لانتصار المسلمين على الصليبيين بقيادة ملك المجر فى هذه الحملة .

[٢] هى بين مدينتى دكرنس والمنصورة .

[٣] هى مكان مركز أمراض الكلى الآن .

زوجها فى رباط كما أخبر النبى ﷺ فى الحديث المذكور آنفاً .

تحرك لويس نحو القاهرة:

أخذ لويس فى التحرك جنوباً نحو القاهرة "العاصمة" ، ولم يتركه المصريون يهنأ بما استولى عليه ، بل كانت تقوم معارك متفرقة بين الطرفين ، وكانت الحرب فيها سجالاً بينهما .

فى هذه الأثناء أخذ المرض يشتد على الملك الصالح ، فحُمل إلى قلعة المنصورة حيث مكان شجرة الدر لتمريضه ، ولقى ربه فى شهر شعبان عام (٦٤٧هـ/٣نوفمبر١٢٤٩م) بعد يومين من مسير لويس عن أربع وأربعين سنة .

كانت وفاة الملك الصالح أيوب كفيلة بهزيمة المسلمين فى هذه الظروف العصيبة، غير أن شجرة الدر بحكمتها بادرت بامتلاك زمام الموقف ، فأخفت موت السلطان، وسيرت الأمور مع باقى رجال الدولة والقواد طوال أربعة أشهر — على ما اختاره ابن تغرى بردى — حتى كان السماط[1] السلطانى يمد فى مواعيده وكأن شيئاً لم يحدث ، وكانت الأوامر والمنشورات تخرج ممهورة بخط السلطان — وهى بخطها أو بخط الخادم — وحُمل جثمانه سراً إلى الروضة بالقاهرة ، ثم نُقل إلى قبره بجوار المدارس الصالحية قرب خان الخليلى . هذا فى الوقت الذى كانت شجرة الدر تعتذر فيه إلى كل من يريد مقابلة السلطان بأنه مريض لا يستطيع مقابلتهم . وأرسلت "أقطاى" لاستدعاء "تورانشاه" ابن السلطان ونائبه على دمشق لإدارة أمور البلاد بعد أبيه .

ماذا يقول دعاة تحرير المرأة عن تصرف شجرة الدر العظيم هذا ، وهى بالطبع لم تتصرفه إلا باسم الإسلام ولصالحه ولصالح المسلمين ؟![2]

---

(١) أى المائدة .

(٢) لمعرفة المزيد عن شجرة الدر ، ومكانتها عند زوجها "الصالح نجم الدين أيوب" ، وحسن تصرفها حين مات ، واستقدامها "تورانشاه" ، والوحشة التى دبت بينهما ، وقتله بتدبيرها ، وتوليها أمر مصر ، {يتبع}

تحركت جيوش الصليبيين جنوباً عن طريق الدلتا المعروفة بكثرة ترعها وقنواتها فأعاق ذلك تقدمهم ، حيث حصروا فى سيرهم من الشمال الشرقى ببحيرة المترلة ، ومن الغرب بدمياط ، ومن الجنوب بالبحر الصغير "بحر أشموم" فاستغل الأمير فخر الدين الموقف فهاجمهم بين فارسكور وشرمساح بقوات من الخيالة الفرسان على النيل حيث كانت تسير سفنهم محملة بالإمدادات ، فعرقل ذلك تحركهم وأوقع عدداً منهم فى الأسر .

غير أن "لويس" أخذ يقترب شيئاً فشيئاً من المنصورة ، حتى وصلت طلائعهم إليها فى أوائل رمضان (٦٤٧هـ/١٢٤٩م) ، وعسكر شرق المدينة ، فجمع فخر الدين قواته وعسكر فى مواجهتهم "بجديلة" ، وصارت القوتان لا يفصل بينهما إلا البحر الصغير ، ووقعت بينهما معارك لمدة ستة أسابيع كان التفوق فيها للمسلمين بسبب القذائف الملتهبة التى استأثر المسلمون بسرها ، فكانت تحدث فى صفوف الصليبيين الذعر وتفتك بهم ، كما منعتهم من إقامة جسر على البحر الصغير للعبور عليه إلى المسلمين فى الجهة الأخرى من الشاطئ ، وظل الأمر هكذا حتى حدثت المعركة الفاصلة داخل المدينة التى كانت مفتاح النصر يوم (٨فبراير ١٢٥٠م/٤ذى القعدة ٦٤٨هـ) .

{تابع}وما يجرى على يديها من الخيرات لأهل مصر ، واعتراض الخليفة العباسى ببغداد "المستنصر بالله أبو جعفر" وتذكيره إياها بحديث الرسول ﷺ الصحيح : « لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » . [البخارى على الفتح ٧٣٢/٧ ك المغازى ب كتاب النبى ﷺ إلى كسرى وقيصر .] ونزولها عن كرسى الحكم بمجرد وصول الرسالة احتراماً لحديث رسول الله ﷺ وتقديراً لمكانة الخليفة على ضعفه بعد نحو ثلاثة أشهر من توليها ، وتولية "عز الدين أيبك" الأمر بعد تزوجه منها تقديراً لها ، وحصول الوحشة بينهما ، وقتل رجالها إياه ، ثم قتلها ، وتسجيل الملاحظات على ذلك ، راجع أسس نظام الحكم الإسلامى وخصائصه للمؤلف ص١٣٠-١٣٢.

معركة المنصورة :

وصل أحد النصارى إلى معسكر "لويس" ، وعرض عليه أن يكشف لـه عـن مكان مخاضة لعبور "البحر الصغير" مقابل مبلغ من المال ، فأعطاه "لويـس" مـا طلب، فدلـهم على مخاضة عند بلدة سلامون القماش التي كان بـها عدد مـن النصارى ، فاجتازها "لويس" على رأس قوة من الجيش بعد عناء لشـدة مقاومـة القوة الإسلامية .

ثم تقدم "روبرت" أخو لويس على رأس كتيبة كبيرة من الفرسان الأقويـاء في ظلمة الفجر لمهاجمة معسكر المسلمين في جديلة التي كانت تبعد عن معسكرهم نحو ميلين ، وفاجئوا المسلمين بالـهجوم ، فأحدثوا في صفوفهم ذعراً كبيراً ، وفتكـوا بأعداد غفيرة منهم لم يتمكنوا من الوصول إلى أسلحتهم .. وما إن سمـع القـائد فخر الدين الجلبة حتى وثب على صهوة جواده ، وقذف بنفسه في المعركـة دون أن يلبس لأمة الحرب ، فأحاطت به طائفة من الفرسان الصليبيـين فمزقـت جسـده بطعنات رماحها وضربات سيوفها وفر بعض من لم يتمكن مـن سـلاحه مـن المسلمين إلى معسكر المنصورة .

واغتر "روبرت" بما حدث للقوة المسلمة ، وقاده هذا الغرور إلى حتفه هو ومـن معه ، فقد تبع الفارين إلى المدينة ، وأراد الوصول إلى قصر السلطان ، غير أنه وقـع بمجموعته في الكمين الذى نصبه لـهم ركن الدين "الظاهر بيبرس" الـذى تـولى القيادة مكان فخر الدين ، فقد أمر القائد الأهالى بدخول بيوتـهم و الاختفـاء بـها إلى حين صدور الأوامر إليهم ، وفرّغ الشوارع من الحركة فيها . ومـا إن انتشر الفرنسيون في الشوارع والأزقة حتى صدرت الأوامر سريعاً للجند والأهالى ، فانقضوا عليهم انقضاضة رجل واحد ، وأظهروا بطولات نـادرة في المقاومـة ، فصارت الشوارع والأزقة والبيوت قبوراً لروبرت وجنوده ، فقد أبيدوا عن آخرهم

– على رواية – وقتل معظمهم على – رواية أخرى – وكان يوم (٤ ذى القعدة ٦٤٨هـ/٨ فبراير ١٢٥٠م) يوما مشهوداً فى حياة المصرين بعامة وحياة أبناء المنصورة بخاصة ، دخلت به فى التاريخ من أوسع أبوابه ، وكان بحق مفتاح النصر للمعركة الكبرى .

وأسقط فى يد "لويس" بما حدث لكتيبة أخيه ، رغم استغلاله صخب المعركة ونجاحه فى إقامة جسر على البحر أوصله إلى (جديلة) ليكون وجها لوجه مع قوات المسلمين دون حائل طبيعى .. غير أن المسلمين بدءوا يشنون عليهم غارات متتابعة ، منها الهجوم الذى تم بعد معركة المنصورة بثلاثة أيام ، واستطاعوا به كسر الجناح الأيسر للأعداء وتطويق الجناح الأيمن حتى كاد قائده أن يقتل ، ولم ينقذه إلا النساء والطباخون وخدم المعسكر .

وظل "لويس" فى المعسكر شهرين ينتظر فرصة للانقضاض على المسلمين فلم يجد .

تورانشاه واشتعال نيران المعركة :

وصل "تورانشاه" من الشام ، وتسلم مقاليد الأمور مكان أبيه ، وعندئذ أعلنت شجرة الدر موت السلطان الصالح وتولّى ابنه "تورانشاه" .

وكان ذلك إيذاناً بتصعيد الصراع المسلح وتقوية روح الجيش المعنوية .. واستعمل السلطان الجديد وسائل جديدة فى الهجوم ، فقد أمر بصنع أسطول من السفن الخفيفة وحملها على ظهور الجمال إلى الفروع السفلى من النيل ، مما كان لذلك أثره فى تقويض أسطول الفرنج ، إذ استولى المسلمون على (٨٠) سفينة بما تحمل ، كما استولوا على قافلة ضمت (٣٢) سفينة بعد هجوم شنوه عليهم .

وأبدى المسلمون ضروباً من الشجاعة والاستبسال فى جهاد الأعداء ، وحارب العلماء جنباً لجنب مع الأهالى والجنود ، بل إنهم كانوا بجوار القواد

يديرون رحى المعركة مما كان لذلك أثره الطيب فى تقوية عزيمة الأمة وثقتها فى قادتها وتأييد الله تعالى لهم حتى حدثت فى المعركة الخوارق وذلك فضل الله يمد به جنده المخلصين له .

يحكى السيوطى فى تاريخه (٣٥/٢) أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام — وكان يلقب بسلطان العلماء — كان فى معسكر المسلمين ، وكانت الغلبة للفرنج فى أول الأمر ، وقويت الريح على المسلمين ، فقال الشيخ عز الدين بأعلى صوته مشيراً بيده إلى الريح : يا ريح خذيهم ، عدة مرات ، فعادت الريح على مراكب الفرنج فكسرتها ، وكان النصر ، وغرق أكثر الفرنج ، وصرخ من المسلمين صارخ : الحمد لله الذى أرانا فى أمة محمدﷺ رجلاً سخر له الريح .

إن هذا يرينا مكانة العلماء العاملين عند الله تعالى وأثرهم فى استدرار رحمة الله تعالى ونصره للأمة وإعلاء شأنها ، والريح آية ظاهرة من آيات الله تعالى أيَّد بها جنده المؤمنين فى الأحزاب كما قال تعالى :﴿ **يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنودٌ فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تَرَوها ، وكان الله بما تعملون بصيراً** ﴾ [1].. شاهد ذلك الصحابى الجليل حذيفة بن اليمان بنفسه حين بعثه الرسول ﷺ فى مهمة استخبارية داخل معسكر الأعداء حتى قال:"ورأيت الريح وجنود الله تعمل فى القوم عملها." .

ومن صور التلاحم بين الشعب والجنود وضروب الحيل التى تفتقت عنها الأذهان دفاعاً عن العقيدة والأرض ما رواه المقريزى (السلوك ٣٧/١) من أن شخصاً أخذ بطيخة مفرغة ، أدخل فيها رأسه ، وغطس فى الماء إلى قرب من الفرنج ، فظنوه بطيخة ، فما هو إلا أن نزل أحدهم فى الماء ليتناولها إذ اختطفه المسلم ، وعام به حتى قدم به إلى المسلمين . إلى غير ذلك من صور الجهاد

---

[1] الأحزاب آية (٩) .

والاستبسال التي تبين أن الشعوب حين تقاد باسم الإسلام ، وحين يكون بينها وبين رعاتها حب ووئام يكون البذل وتظهر التضحية بأجلى صورها ويكون النصر والتقدم .

انهزام الصليبيين وأسر لويس :

أدرك "لويس" أنه أمام موقف صعب ، وعليه أن يدخل فى مفاوضات لاستنقاذ ما بقى من الجنود الذين أخذ المسلمون يتخطفونهم براً وبحراً ، وساعد على صعوبته فشو الجوع والمرض فى الجيش .

فأرسل إلى "تورانشاه" يعرض أخذ بيت المقدس من المسلمين فى مقابل الجلاء عن دمياط ، فقوبل العرض بالرفض التام ، فقرر الانسحاب والعودة إلى دمياط مرة ثانية ، فانتهزها المسلمون فرصة ، واشتدوا فى مطاردتهم وقتلهم وأسرهم ، ووقعت بين الطرفين معارك كبيرة قرب فارسكور وشرمساح وميت الخولى عبد الله التى أسر بها "لويس" مع من كانوا معه ، واستسلم الفرنج للمسلمين ، واقتيد ملكهم بأمرائه وقادته إلى المنصورة حيث تولى الطواشى "صبيح" حراسته بدار ابن لقمان .

وكان من الشروط التى أخذت على "لويس" إطلاق سراحه وسراح قواده وجنوده فى مقابل قدر مالى كبير يدفعونه للمسلمين ، وتسليم دمياط للمسلمين بدون قيد أو شرط ، وألا يقوم "لويس" بحرب المسلمين مرة أخرى[١] .

وتسلم المسلمون دمياط من أيدى الفرنج فى (٣صفر٦٤٨هـ/٦مايو١٢٥٠م)، وغادرها "لويس" بجنده يوم (٨مايو) متجهين إلى عكا ، يجرون وراءهم أذيال الهزيمة والخزى والعار ، بعد أن مكثوا بها أحد عشر شهراً ، وقد فقدوا من

---

[١] رغم التزام لويس بهذه الشروط أمام المسلمين إلا أنه نقض عهده فقام بحملة صليبية ثامنة عام(١٢٥٤م)، لكن الله أهلكه عند الشواطئ التونسية مع معظم من كانوا معه ودفن بمدينة "قرطاجنة " وعاد الباقون إلى معسكرهم مرة أخرى .

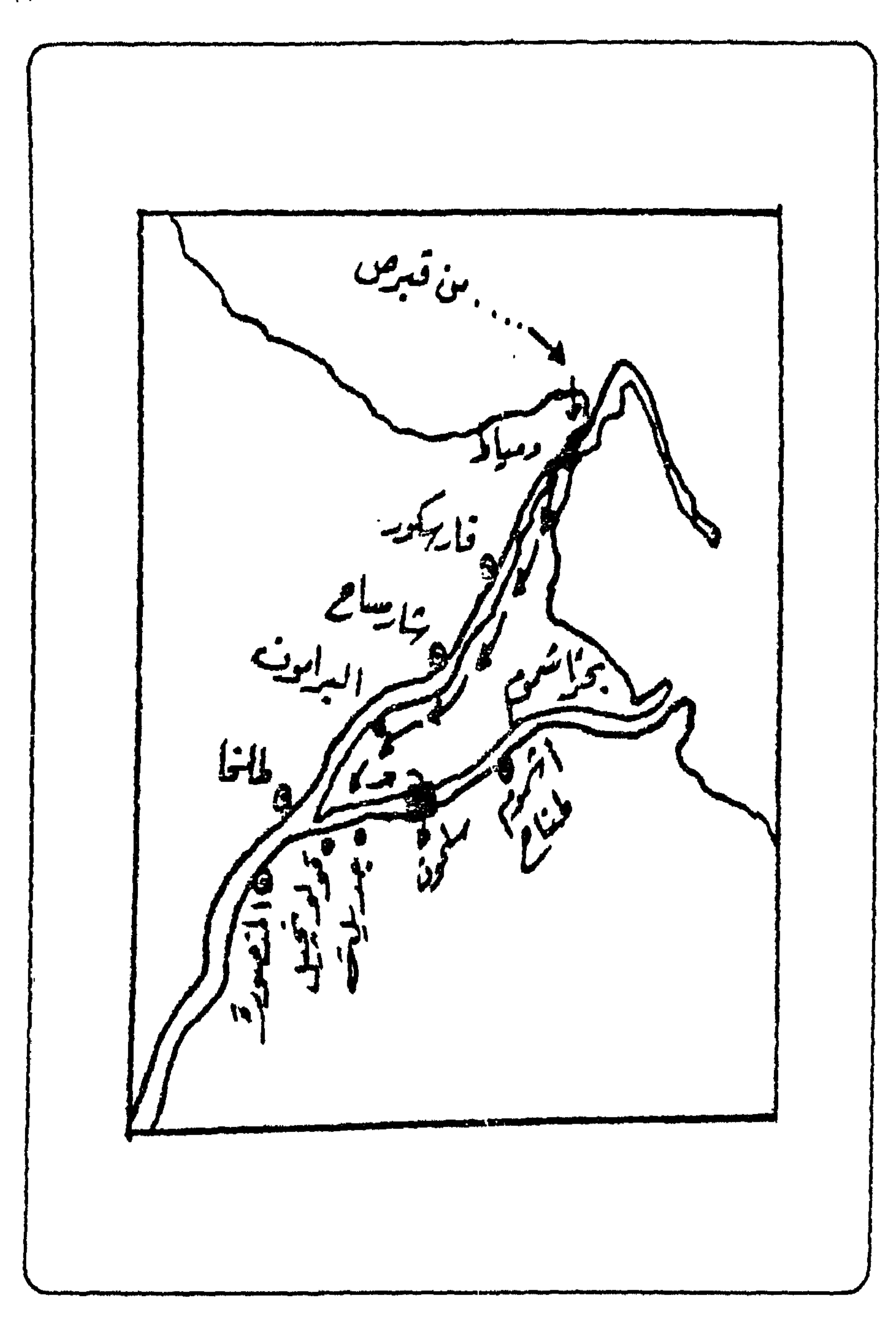
خيرة جنودهم أعدادا غفيرة ، قدرها بعض المؤرخين بثلاثين ألفا ، وبعضهم قدرها بخمسين ألفا ، وذكر البعض أنها مائة ألف[1] . وصدق الله إذ يقول :
﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾[2] .

لقد ضم انتصار أبناء مصر – قيادةً وجنوداً وشعباً – على الصليبين المعتدين جديداً إلى سجلها الحافل بالدفاع عن الإسلام الذى دخلت التاريخ من أوسع أبوابه به ، كما أمدتنا وقائع الحملة بدروسها التى لا تنسى .

---

(١) راجع فى حملة لويس ما يلى : البداية والنهاية لابن كثير ١٣/١٧٧-١٧٨ دار الفكر العربى . بدون ، الخطط للمقريزى ٣/٨٩-٩٠ . دار التحرير . بدون ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى الأتابكى ٦/٣٦٢-٣٧٤ .دار الكتب . بدون . حسن المحاضرة للسيوطى ١/١١-١٩ ، ٢/٣٥-٣٧ ، تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار . عبد الرحمن الجبرتى ١/٢٨ . دار الجيل . بيروت . بدون ، تاريخ الدولة العلية العثمانية . محمد فريد بك ص ٣٠-٣١ . دار الجيل . بيروت ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م ، موسوعة تاريخ مصر . أحمد حسين ٢/٦٦٤-٦٦٧ . دار الشعب . بدون ، فن الحرب الإسلامى أيام الحروب الصليبية. بسام العسلى ٤/٢١٣-٢٢٦ . دار الفكر . بيروت . الأولى ١٣٠٨هـ/١٩٨٨م ، الغزو الصليبى والعالم الإسلامى . د. على عبد الحليم محمود ص ١٩٠-١٩٨ . دار التوزيع والنشر الإسلامية . الأولى ١٤١٤ هـ/١٩٩٣م ، أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ . القضية الفلسطينية د.جمال عبد الهادى وزوجته ١/٣٢-١٣٥ . دار الوفاء . الأولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، التاريخ الإسلامى آفاقه السياسية وأبعاده الحضارية . د. إبراهيم العدوى ص ٣٦٣-٣٧٧ . مكتبة الأنجلو المصرية . بدون ، موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية . د. أحمد شلبى ٥/٦٠٢-٦٦٥ . مكتبة النهضة المصرية . السادسة ١٩٨٣م ، أسس نظام الحكم الإسلامى وخصائصه . د. فرج محمد الوصيف ص ١٣٠-١٣٣ . إياك كوبى سنتر بالمنصورة . الأولى ١٤١٥هـ/١٩٩٥م ، أثر الحروب الصليبية على الفكر الغربى الحديث . محمد أسد . الأولى ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م ، مصر فى عصر الأيوبيين . د. السيد الباز العرينى ص ١٣٩-١٤٩ . مطبعة الكيلانى الصغير . بدون ، معالم التاريخ الإسلامى المعاصر . أنور الجندى ص ٥٣ . دار الاعتصام . بدون ، المنصورة قاهرة الصليبين . نقابة الأطباء . الأولى ١٤١٨هـ/١٩٩٨م .

(٢) المنافقون آية (٨).



خط سير الحملة والقوات الصليبية



خط سير الجيش الإسلامى بقيادة الملك الصالح أيوب ، حيث عسكر أو عند أشموم طناح ، ثم بعد سقوط دمياط عاد ليعسكر بالمنصورة

دروس يجب ألا تنسى :

أمدتنا الحملة الصليبية السابعة وانتصار المسلمين فيها بالدروس التى يجب النظر فيها ووضعها موضع الاعتبار خاصة وأننا نعيش اليوم صراعا متعدد الأشكال والجبهات ، وقد قالوا : "ما أشبه الليلة بالبارحة" .

فما أشبه ما يتعرض له المسلمون اليوم من كيد بما تعرض له أسلافهم بالأمس ، غير أن الأسلاف سرعان ما كانوا يفيقون ويتوحدون وعلى الإسلام يجتمعون ، وبه يواجهون الأعداء فينتهى الأمر بنصر الله لهم ، ومن الدروس التى تمدنا بها وقائع الحملة الصليبية السابعة ما يلى :

١- أن أعداء الإسلام نهازون للفرص ، وهم يجيدون الصيد فى الماء العكر ، فقد انتهزوا فرصة الخلاف الذى حدث بين الملك الصالح ومنافسيه من البيت الأيوبى فى الشام ، فأسرعوا بحملتهم على العالم الإسلامى بادئين بمصر ، غير أن البيت سرعان ما أفاق وعاد للوحدة والاجتماع على كلمة سواء ، جمعت الشام ومصر معا ، فكان من ثمرة ذلك القوة والتماسك والثبات فى مواجهة المحنة حتى تم النصر ، واليوم إذ نواجه نفس التحدى فلا بد من الوحدة و لم الشمل والاجتماع على كلمة سواء هى هذا الدين حتى ننال ما ناله أسلافنا من العز والتمكين والنصر، وصدق الله إذ يقول :﴿ **وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون**﴾[1] ويقول :﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون . وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين** ﴾[2] .

٢- أن قيادة الأمة التى يزع الله بها ما لا يزع بالقرآن يجب أن تربى على

---

(١) المؤمنون آية (٥٢) .

(٢) الأنفال آية (٤٥-٤٦) .

العقيدة الصحيحة حتى تكون متعلقة بالله تعلقا يجعلها أهلا لتنزل رحماته على الأمة ونصره لها ، ويكون ولاؤها لله لا لأحد سواه ، وصدق الله إذ يقول :﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم** ﴾[1] ويقول : ﴿ **الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** ﴾[2] .

٣- إحياء فريضة الجهاد فى سبيل الله تعالى ، وتربية الأمة عليه ، فهو الوسيلة القوية الوحيدة القادرة على إجهاض مخططات أعداء الإسلام ، وهل رفع رأس مصر بل العالم الإسلامى إلا الجهاد فى سبيل الله فى كل المحاولات التى قام بها الأعداء ضدنا ؟! .. وهل مرغت كرامة المسلمين فى العصر الحديث إلا يوم ابتعدوا عن التربية على الجهاد فى سبيل الله ؟! .. وصدق أبوبكر رضى الله عنه الذى قال : " وما ترك قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل" .

فيجب تربية الأمة على هذا السياج العظيم الذى يحمى الأمة وأرضها ودينها وأخلاقها وأفكارها ، ويبوئها منازل السعداء فى الدنيا والآخرة لا سيما ونحن نعيش صراعا مع الصهاينة المغتصبين المتبجحين ، وصدق الله إذ يقول :﴿ **يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين** ﴾[3] .

---

(١) محمد آية (٧) .

(٢) الحج آية (٤١) .

(٣) الصف آيات (١٠-١٣) .

٤- إفساح المجال أمام العلماء من الدعاة العاملين الذين ينشرون المفاهيم الصحيحة فى الأمة ، ويعملون على نهضتها ورقيها ، لأنهم خط الدفاع الأول ضد الجهل والتطرف والتعصب ، وبهم يكون الأمن والأمان فى ربوع البلاد ، وهل غاب عنا خبر العز بن عبد السلام الذى مر موقفه منذ قليل ؟ .

إنه مع رسالته العلمية التربوية ، قد أفسح له المجال ليكون مشاركا الأمة فى محنتها ، وكان معهم فى ساحة المعركة برا وبحرا ، وأفسح له المجال للدفاع عن حقوق الأمة حين يعتدى عليها حاكم أو أمير ، وكانت له فى هذا المجال مواقفه التى تحسب له وتحسب للحاكمين آنذاك رغم خروج بعضهم عن جادة الصواب ، فقد أنكر على الصالح إسماعيل صاحب دمشق استعانته بالفرنج ضد أخيه ، وإعطائهم مدينة صيدا وقلعة الشقيف .. وترك ما كان متعارفا عليه آنذاك من ترك الدعاء له فى الخطبة ، والإنكار علنا لما فعل ... فلما غضب السلطان منه خرج قاصدا الديار المصرية عام (٦٣٩هـ) ، فأرسل السلطان إليه رسولا على عجل يتلطف به فى العود إلى دمشق ، فاجتمع به ولاينه .. وقال له : ما نريد منك شيئا إلا أن تنكسر للسلطان (تنحنى له) ، وتقبل يده لا غير .. فقال الشيخ له : يا مسكين ، ما أرضاه يقبل يدى فضلا عن أن أقبل يده ! يا قوم أنتم فى واد وأنا فى واد ! والحمد لله الذى عافانا مما ابتلاكم ... فلما وصل إلى مصر تلقاه الصالح نجم الدين أيوب وأكرمه ، وولاه قضاء مصر وخطابتها ..[1]

فماذا كان من الشيخ هل داهن فى مقابل هذا التكريم على حساب دينه ورسالته؟ .. لقد ظل على مبدئه الذى كان عليه بالشام لم يتغير ، إذ المبادئ لا تتجزأ ولا تتغير وإن تغير الزمان والمكان .

ولهذا كانت للشيخ مواقفه الجريئة مع السلطان والأمراء ، وإليك طرفا منها:

---

[1] حسن المحاضرة ٢/١٦١-١٦٢ .

* كان الصالح أيوب سلطانا شديد البأس لا يجسر أحد أن يخاطبه إلا مجيبا ولا يتكلم أحد بحضرته ابتداء ، وقد جمع من المماليك الترك ما لم يجتمع مثله لغيره من أهل بيته حتى كان أكثر أمراء عسكره منهم ، وهم معروفون بالخشونة والبأس والفظاظة ، والاستهانة بكل أمر ، فلما كان يوم العيد صعد إليه الشيخ وهو يعرض الجند ويظهر ملكه وسطوته ، والأمراء يقبلون الأرض بين يديه ، فناداه الشيخ بأعلى صوته ليسمع هذا الملأ العظيم : يا أيوب .. ثم أمره بإبطال منكر انتهى إلى عمله فى حانة تباع فيها الخمر ، فأصدر السلطان أمره فورا بإبطال الحانة واعتذر إليه ..

سأله "الباجى" بعد رجوعه من القلعة وقد شاع الخبر فقال: يا سيدى كيف كانت الحال ؟ قال : يا بنى رأيته فى تلك العظمة فخشيت على نفسه أن يدخلها الغرور فتبطره ، فكان ما بدأته به – فانظر كيف كانوا ميزان الاعتدال للرعاة !– .. قال : أما خفته ؟ قال : يا بنى استحضرت هيبة الله تعالى فكان السلطان أمامى كالقط[1] ..

* كما تصدى لبيع أمراء الدولة من الأتراك – لما زادت سطوتهم – إذ لم يثبت عنده أنهم أحرار ، فحكم الرق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين ، وأبطل بيعهم وشراءهم ونكاحهم ، فاستجابت الأمة للعالم الداعية وتعطلت بذلك مصالحهم ، وكان من جملتهم نائب السلطنة ، فاستثار غضبا ، واجتمعوا بالشيخ كى يتراجع فثبت على موقفه ، وأعلموا السلطان بذلك فبعث إليه فلم يرجع ، وبعث إليه النائب فلم يرجع ، فانزعج النائب لذلك ، فقال : كيف ينادى علينا هذا الشيخ ، ويبيعنا ونحن ملوك الأرض! والله لأضربنه بسيفى هذا ، فركب بنفسه فى جماعته وجاء إلى بيت الشيخ والسيف مسلول فى يده ، فطرق الباب ، فخرج

---

[1] الغزو الثقافى يمتد فى فراغنا . الشيخ محمد الغزالى . ص١٧٤ . دار الصحوة ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م .

ولد الشيخ ، ثم عاد وشرح لأبيه ما رأى ، فما اكترث لذلك ، وقال : يا ولـــدى أبوك أقل من أن يقتل فى سبيل الله ، ثم خرج . فحين وقع بصره علـــى النـــائب يبست يد النائب ، وسقط السيف منها ، وأرعدت مفاصله ، فبكى وسأل الشـــيخ أن يدعو له ، وقال : يا سيدى إيش تعمل ؟ قال : أنادى عليكم وأبيعكم ، قـــال : ففيم تصرف ثمننا ؟ قال : فى مصالح المسلمين ، قال : من يقبضه ؟ قال : أنا.

فتم ما أراد ، ونادى على الأمراء واحدا واحدا ، وغالى فى ثمنهم و لم يبعـــهم إلا بالثمن الوافى ، وقبضه وصرفه فى وجوه الخير [١] ..

* وموقفه فى عهد قطز أثناء الاستعداد لحرب التتار فى عين جـــالوت عـــام (٦٥٨هـ/١٢٦٠م) من إنفاق الأمراء أولا ما بأيديهم من الأمـــوال والضيعـــات والمتاع ، ثم التوجه بعد ذلك إلى الشعب .. وتنفيذ رأيه معروف مشهور .. وهكذا نجد أن علماء الأمة العاملين كانت لـــهم مكانتـــهم فى قلـــوب الأمـــة ، وقـــدر المسؤولون لـــهم ذلك فاحترموهم وجعلوا لـــهم الصدارة فى النـــاس وأفســـحوا لـــهم المجال فى التوجيه والإرشاد .

وأكثر من هذا وقفوا أمام جبروت المتفرعنين منهم لتحويلهم من طغيانـــــهم على الأمة إلى صفتهم الأولى التى لازمتهم زمنا والتى تناسوها كما فعل العز ، ومـــا تجاوز الشريعة فيهم بل طبقها عليهم ، وألزم السلطان بذلك فالتزم . فأين هـــؤلاء الأمراء والعلماء من حكام وعلماء اليوم ؟ .

يقول الشيخ محمد الغزالى رحمه الله : " ترى : أتشهد الجماهير المهيضة مـــزادا آخر من هذا النوع الفريد ، يعرض فيه رؤساء للبيع ؟ . لا ، لقد انتهى بيع الرقيـق، نريد ساحة أخرى يتعرى فيها الطغاة من أسباب البأس ، ويعاملون فيها بما قدمـــوا

---

(١) حسن المحاضرة ١٦٢/٢-١٦٣ ، وحى القلم . مصطفى صادق الرافعى ٥٦/٣-٥٨ .دار الكتاب العربى . بيروت . بدون .

سِنًّا بسن ، وعيناً بعين ، ونفساً بنفس ." [1] .

المخطط الرهيب :

وقبل الانتهاء من الحديث عن هذه الحملة ينبغى الإشارة إلى المخطط الخطير الذى وضعه لويس لبنى مِلّتِه وجِلْدَته ، ذلك المخطط الذى بقيت آثاره حتى الآن رغم مرور قرون عدة على زمانها ، عُدَّت به الحملة بداية لمرحلة جديدة تعامل بها الغرب الصليبى مع المسلمين .

فقد ذكر المؤرخ الفرنسى "جوانفيل" الذى رافق "لويس" فى حملته السابعة : أن خلوة لويس فى معتقله بالمنصورة أتاحت له فرصة هادئة كى يفكر بعمق فى السياسة التى كان أجدر بالغرب أن يتبعها إزاء المسلمين ، ورسم لهم مخططاً على النحو التالى :

أولا : وجوب اتحاد الغرب والانضواء تحت زعامة واحدة ، وتناسى خلافاته للتفرغ للعدو المشترك : الإسلام وأهله .

ثانيا : استخدام سلاح جديد يسير جنبا لجنب مع السلاح العسكرى ، هو السلاح السلمى الذى يستهدف نفس الغرض ، وذلك يتحقق بالدس بين العرب بعضهم بعضا ، وإثارة الخلافات فى الأوساط الإسلامية ، والعمل على بقاء نارها مستعرة بين الأمراء المسلمين . ثم الإمعان فى تأييد بعضهم ضد البعض ، وتأييد ذلك بمعاهدات يمكن نقضها عند الاقتضاء .. واستغلال الخلافات والمنافسات لمنافع سياسية واقتصادية للغرب ..

ثالثا : تجنيد المبشرين الغربيين فى معركة سلمية (الكتب والمجلات والجرائد ووسائل الإعلام والمدارس والتطبيب والخدمات الاجتماعية) لمحاربة تعاليم الإسلام.

---

[1] الغزو الثقافى يمتد فى فراغنا ص ١٨١ .

رابعاً : العمل على استخدام نصارى الشرق لتنفيذ سياسة الغرب .

خامسا : العمل على إنشاء قاعدة للغرب فى قلب الشرق العربى يتخذها الغرب نقطة ارتكاز له ومركزاً لقواته الحربية ولدعوته السياسية والدينية ، ومنها يمكن حصار الإسلام والوثوب عليه كلما أتيحت الفرصة لمهاجمته .

وقد عين لويس لإنشاء هذه القاعدة الأراضى الممتدة على ساحل البحر الأبيض من غزة حتى الإسكندرية وتشمل فلسطين والأردن والأماكن المقدسة ثم لبنان[1] .

وهذا ما نرى شواهده اليوم على أرض الواقع .

* * *

هذه هى الحملة الصليبية السابعة بأحداثها ودروسها وبما انتهت إليه من مخطط عسكرى وفكرى عُدّ به لويس التاسع رائد التنظير للحملات الصليبية التى تعرض لها العالم الإسلامى فى العصر الحديث ، ولاسيما حملة نابليون على ديارنا الإسلامية ، فماذا عن هذه الحملة ، وما الأضرار التى نجمت عنها على حياتنا نحن المسلمين فى كل الميادين ؟ .

ذلك ما سيعالجه الفصل القادم بمشيئة الله تعالى .



---

[1] معركة المصحف فى العالم الإسلامى . الشيخ محمد الغزالى ص٢٠٤-٢٠٧ بتصرف .دار الكتب الحديثة . الثانية ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م ، العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها فى الحياة الإسلامية المعاصرة . د. سفر الحوالى . ص٥٢٨-٥٣٧ . مركز البحث العلمى وإحياء التراث الإسلامى بالسعودية . بدون .

الفصل الثانى

نابليون وتنفيذ المخطط

مرت قرونٌ خمسة على حملة "لويس التاسع" ، ثم جاء خلفه "نابليون بونابرت" فى القرن الثالث عشر الهجرى (القرن التاسع عشر الميلادى) بحملته على ديار المسلمين لتنفيذ المخطط الصليبى الآنف الذكر .

تجريد الحملة :

تحرك "نابليون بونابرت" من فرنسا قاصداً مصر قلب العالم الإسلامى النابض على رأس (٥٠) ألف جندى – حسب رواية هيرولد[1] – من عتاة المحاربين الفرنسيين ، وهم يتذاكرون فيما بينهم حروب "كارل مارتل" و"لويس التاسع" ضد المسلمين ، فوصلت الحملة إلى شواطئ الإسكندرية بدلاً من دمياط تفادياً للخطأ العسكرى الذى وقع فيه "لويس" من قبل ، ودخلها بجيوشه فى (١٨ من المحرم ١٢١٣هـ/٢يوليه١٧٩٨م) بعد مقاومة عنيفة من أهلها وأخضعها بالحديد والنار وعين عليها حاكماً فرنسياً .

ثم تحرك بقواته إلى القاهرة وبقية الأقاليم فى أنحاء مصر فى الوجهين القبلى والبحرى واستولى عليها كلها وسط مقاومة شديدة من الجند والأهالى والعلماء[2]،

---

(1) بونابرت فى مصر . ص٤٠١ . ترجمة اندراوس . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨م .

(2) راجع تفاصيل المعارك والاحتلال فى عجائب الآثار فى التراجم والأخبار للجبرتى ١٨٠/٢ وما بعدها ، تاريخ الحركة القومية بجزأيه : الأول والثانى للمؤرخ عبد الرحمن الرافعى . دار المعارف بمصر ، تناشير النهضة فى العالم الإسلامى . د. محمد ضياء الدين الريس .ص٥١ وما بعدها . دار الأنصار بالقاهرة . الثالثة ، الإسلام عبر التاريخ انتصارات وانتكاسات . عبد الغنى سعيد . ص١٨٤ . القاهرة للثقافة العربية . بدون ،{يتبع}

بعد أن أحدث ما أحدث من مصائب لم يُصَب العالم الإسلامى بمثلها إلا ما كــان على أيدى أسلافه من الصليبين والتتار .

يقول الجبرتى عن السنة التى احتل فيها الفرنسيون مصر مشيراً إلى شروره الـتى عمت البلاد : " وهى أول سنى الملاحم العظيمة ، والحوادث الجسيمة ، والوقـائع النازلة ، والنوازل الهائلة ، وتضاعف الشرور ، وترادف الأمور ، وتوالى المحـن ، واختلال الزمن ، وانعكاس المطبوع ، وانقلاب الموضـوع ، وتتـابع الأهـوال ، واختلاف الأحوال ، وفساد التدبير ، وحصول التدمير ، وعموم الخراب ، وتواتـر الأسباب . وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون." [١] .

وهذا الكلام من الجبرتى يحمل فى طياته معانى كثيرة وتفصيلات متنوعة للوجـه الحقيقى البشع للحملة الفرنسية التى لعب الاستشـراق دوراً كبـيراً فى تجريدهـا لاحتلال ديارنا والقضاء على هويتنا الإسلامية .

الدور الاستشراقى فى تجريد الحملة :

ظهرت حملات الاستشراق على الساحة العالمية كى تودى دورها المرسوم لـها جنباً لجنب مع الحملات العسكرية تنفيذاً للمخطط الذى نسج خيوطـه القديـس "لويس" المُنَظِّر الأول للطريقة الصليبية الجديدة فى التعامل مع المسلمين .

وقد عمل الاستشراق بكامل طاقاته ، وعلى جبهات متعددة فى تخفٍ تـام فى ديار الإسلام على مدى قرون متتابعة ، كتب فى أثنائها التقـارير تلـو التقـارير للحكومات الأوروبية المتعاقبة يحثها فيها على تجريد الحمـلات لاحتـلال ديـار المسلمين .

{تابع}مجلة الأزهـر . مقالة : الأزهر جامعاً وجامعة . محمد كمال السيد . ص٧٣٣-٧٣٤ . عـدد ربيـع الأول ١٣٩٩هـ/فبراير ١٩٧٩م .

[١] عجائب الآثار ١٧٩/٢ .

وقوى نشاطه فى القرنين السابع عشر والثامن عشر بصورة ملحوظة خاصـــةً فى مصر نظراً للنهضة الشاملة فى جميع الميادين بالمنطقة العربية الإسلامية[(١)] .

تكلم الأستاذ محمد عبد الله عنان - رحمه الله - عن الأحـــوال التى مرت بـــها مصر فى هذه الفتـــرة ، ونشاط المستشرقـــين الإنجليز والفرنسيين طلائع بلادهـــم لاستعمار ديارنا فقال : " نرى ثبتاً من الرُحّل[(٢)] الغربيين يفدون عليها فى فـــترات متقاربة ، ويدرسون أحوالـــها وشؤونـــها بعناية ودقة ، وكان جُل هؤلاء الرحـــل من الفرنسيين والإنجليز . فهل كان مقدمهم إلى مصر فى تلـــك الظـــروف أمـــراً عرضياً؟ وهل كانوا طلاب سياحة وثقافة ودرس فقط ؟ أم كانوا طلائع الاستعمار الغربى المتوثب يومئذ ، قدموا إلى مصر يجوسون خلالـــها ، ويتفقدون شؤونـــــها وأسرارها تمهيداً لمشاريع يجيش بـــها هذا الاستعمار ؟ .

يلوح لنا أن هذه الرحلات والدراسات المستفيضة ، لم تكن بريئة كل الـــبراءة ، و لم تكن بعيدة كل البعد عن وحى الاستعمار ومشاريعه ، ولقد ألفى الاستعمار فى هذه الدراسات كل ما يرغب فى معرفته عن مصر ، وجاء بونابرت إلى مصر تحدوه أحلام إمبراطورية عظيمة ، كان يعتقد أنـــه يســـتطيع أن يتخـــذ مصـــر قـــاعدة لتحقيقها. " [(٣)].

وكانت الجيوش الاستشراقية التى توزعت فى أماكن شتى من عالمنا الإســــــلامى

[(١)] انظر رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا . محمود شاكر . ص ١٦٣-١٧٦ . دار الهلال ١٩٩١م عدد (٤٨٩) . وقد اعترف بهذا "كرستوفر هيرولد" فى كتابه "بونابرت فى مصر" ص٢١-٢٥ . الهيئة المصرية العامة للكتـــاب ١٩٩٨م . ترجمة فؤاد اندراوس .

[(٢)] هم فى الحقيقة مستشرقون ، وقد صرح بذلك بعد أسطر من الصفحة فى حديثه عن "سافارى" . انظر ص ٢٣٤ .

[(٣)] مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية ص٢٣٤ . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨ ، وانظر ودخلت الخيل الأزهر . محمد جلال كشك ص٣٣ .

مدربة تدريبا جعلها تؤدى دورها بخبث ومكر شديدين دون أن يشعر بـــهم أحد. يقول العلامة محمود شاكر : " وفى خلال هذه الفـــترة أيضــا ، تكــاثر عــدد المستشرقين حملة هموم المسيحية الشمالية ، وتوافدوا على مصر فى كـــل زى : زى طلبة العلم والمعرفة ، وزى السائح المتجول فى ربوعها شمالا وجنوبا ، وأخطرهـــم شأنا من لبس منهم زى أهل الإسلام ، وجاور فى الأزهر ، ولازم حضـــور دروس المشايخ الكبار ، وصلى مع أهل الإسلام وصام بصيامهم وخالط جماهـــير طلبــة الأزهر مسلما لا يرتاب فيه أحد ، ولا يعرف أحد حقيقته أو أصل بلاده التى جـاء منها ، وإنما هو مسلم كسائر المسلمين الذين يجاورون فى الأزهر من كـــل جنـــس ولون . وكثير من هؤلاء من أقام فى دار الإسلام إقامة طويلة متمادية ، كالمستشرق الداهية المحنك المتستر الخفى الوطء "فانتور" الذى قضى أربعين سنة يتجـــول فى دار الإسلام ، والتحق بعدئذ بالحملة الفرنسية ، فكان شيطان نـــابليون ومستشـــاره وخليله ونجيه الذى لا يفارقه فى الحل والترحال ."[١]

ومثله فى ذلك "مجالون" الذى قضى بـــمصر ثلاثين سنة يكتب لفرنسا التقـارير عن مصر ، وسافر إلى فرنسا يحض حكومتها على احتلالـــها واقتنـــع بـــالفكرة نابليون و"تاليران" وزير الخارجية [٢].

و"سافارى" الذى قدم مصر قبل الحملة بقليل سنة (١٧٧٦م) ، فقضى بـــــها ثلاثة أعوام طاف خلالـــها أرجاء الديار المصرية من شرقها إلى غربـــها ، ومـــن شمالـــها إلى جنوبـــها ، وزار جميع معالمها ومعاهدها وآثارهـــا ، ودرس جميــع أحوالها وشؤونـــها ومجتمعاتـــها ، ودرس اللغة العربية ، والديـــن الإســـلامى ، ووضع عن رحلته ودراساته فى مصر طائفة من الرسائل المستفيضة مـــلأت ثلاثـــة

---

[١] رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا ص ١٨٢ .

[٢] المصدر السابق ص ١٨٢ .

مجلدات ، ونشرت بين سنتى (١٧٨٥م) و(١٧٨٩م) ، ضمنها – كما ذكر – وصفا لخلال أهل مصر القديمة والحديثة ، ووصفا لنظم الدولة ، وأحوال التجارة والزراعة ، وغزو القديس لويس لدمياط منقولا عن "جوانفيل" والروايات العربية ومعها خرائط جغرافية ، وهو بالطبع لم يقدم هذا العمل من تلقاء نفسه ، وإنما قدمه بناء على طلب الدوق " دورليان " أخى الملك لويس السادس عشر ، الذى نصحه بدراسة أحوال المجتمعات التى اعتزم زيارتها ، وخلالها ، وعاداتها ، ولغاتها[1] .

وكان الاستشراق يتولى فى مصر – كما ذكر العلامة محمود شاكر – عملا خبيثا آخر ، ويجند فيها جندا من الأرمن والأروام والمالطيين وغيرهم ، ويحملهم ما فى قلبه من هموم المسيحية الشمالية ، و يغذيهم بالأحقاد المكتمة ، وبلهيب بغضائه الغائرة فى العظام ويدربهم على الدهاء والمكر ، وعلى اتخاذ أقنعة البراءة والبشر والمداهنة والنفاق فى معاشرة أهل دار الإسلام ، ويعينهم بخبرته الواسعة على اليقظة والتنبه والمراقبة ، ويحشد معهم أيضا طوائف من يهود الشمال ومن اليهود المقيمين فى دار الإسلام في مصر ، ويستترل طوائف من شذاذ الآفاق من أهل دار الإسلام وغير دار الإسلام ، كنصارى الشام وسفلة المغاربة ، يستأجرهم لتوسيع خبرته تارة ،وتارة أخرى لبث أفكار درسها المستشرقون ، أو ظنوا أنهم درسوها وأتقنوها ، ويحاول الاستشراق أن يشيعها بين جماهير دار الإسلام فى مصر خاصتها و عامتها ، وللتحكم فى تصريف أموره وغاياته ، ثم للتمكن من إشعال نار الفتنة حين يقتضى الأمر إحداث فتن تفرق شمل الناس وتمزقهم وتشغلهم عن الكيد الخفى الذى يراد بهم . وكل هذا كان يتم فى هدوء وصبر وتستر ، ومن وراء الغفلة ، غفلة أهل دار الإسلام عن جذور قضيتهم . وقد ظهر أثر هذه الحشود جليا

---

[1] مصر الإسلامية ص٢٣٤-٢٣٥ بتصرف .

واضحا زمان الحملة الفرنسية ، وفى البلايا التى حدثت منهم خلال ثورات القاهرة التى اشتعلت على جيش الغزاة الفرنسيين ، مما كاد يفت فى عضد الثوار ويبعثر خطاهم ويشتت شملهم ."[1] .

لقد حاول فريق من هؤلاء المستشرقين المتخفين فى زى طلاب مسلمين التلبيس على المشايخ بإحناقهم على المماليك وتهوين أمر احتلال الفرنسيين لمصر . وحاول فريق ثان التلبيس على المماليك بالإيقاع بينهم وبين المشايخ وتخويفهم من قوة الفرنسيين والواجب الرضوخ لهم .

" وكان آخرون من المستشرقين يتأهبون لإحداث فتنة كبيرة ، إذا ما دخلت جيوش الفرنسيين القاهرة ، فطافوا بالكنيسة القبطية المصرية ، وحاولوا أن يستثيروا حميتها ، و أن يغروها بأن استجابتهم للفرنسيين إنما هو نصرة لدين المسيح على دين الإسلام ، وأن واجبهم ديانة أن يناصروا الفرنسيين ، ويناصبوا المسلمين العداء ، حتى تعلو راية المسيحية ، ويصبح المسلمون أتباعا لهم ورعية لا سلطان لها ، لا يملكون إلا الطاعة المستكينة لدين المسيح . بيد أن الكنيسة القبطية أعرضت عنهم وعن إغرائهم "[2] .

فولوا وجوههم شطر طائفة الأقباط الأغنياء الذين كان عملهم جباية الأموال ، وضبط مالية المماليك ، فاستعصى عليهم أكثرهم واستجاب لهم "المعلم يعقوب" وجمع لهم من سفلة القبط وعامتهم وغوغائهم عددا كبيرا وانضم جهرة إلى الفرنسيين ، فكون منهم نابليون جيشا سماه "جيش الأقباط" على كراهية الكنيسة القبطية وعلى غير رضاها . وهذا الخسيس "المعلم يعقوب" كان هو

---

(١) رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا ص ١٨٠ – ١٨١ .

(٢) المصدر السابق ص ١٩٤ .

وجيشه فتنة كبيرة وبلاء وبيلا .[١]

وكان يضاهيه فى الغدر والخسة "بارتلمى" الملقب "ببرطلمين" أو "فرط الرمان"[٢].

واضح من هذا العرض السابق أن الاستشراق نفذ – ولا يزال ينفذ – المخطط الذى وضعه لويس التاسع ، وأوصى باتباعه .

"فالحملة الصليبية الفرنسية التى استجابت لنذير"الاستشراق" ، كان "الاستشراق" مستكنا فى أحشائها وأحشاء قائدها العظيم "نابليون" يرشده "الاستشراق" ويهديه. وهى لم تقدم على اختراق دار الإسلام فى مصر ، إلا وهى مزودة بأدق التفاصيل عن هذه الأرض وسكانها ، ومداخلها ، ومخارجها ، ومشايخها وعلمائها ، وعامتها وسوقتها ، ونسائها ، ورجالها ، وجيشها وشعبها . جاءت ومعها الدجالون العتاه "علماء الحملة الفرنسية" ومستشرقوها وخبراؤها وأعوانها من اليهود وشذاذ الآفاق ، وكلهم يد واحدة على إحداث انبهار مفاجئ يصدم وعى الشعب خاصته وعامته ، صدمة تذهله عن المكر المستور المفضى إلى تدمير روح المقاومة أو إضعافها إضعافا يتيح للغزاة تثبيت أقدامهم فى

---

[١] رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا ص١٩٦ ، وانظر بونابرت فى مصر ص٢٥٤-٢٥٥ .

[٢] يقول الجبرتى عن أحداث (١٣صفر ١٢١٣هـ/١٧٩٨م) : " وفيه قلدوا "برطلمين" النصرانى الرومى ، وهو الذى تسميه العامة "فرط الرمان" كتخدا مستحفظان (نائب القاهرة) ، وركب بموكب من بيت سارى عسكر وأمامه عدة من طوائف الأجناد والبطالين مشاة بين يده ، وعلى رأسه حشيشة من الحرير الملون ، وهو لابس فروة بزعادة ، وبين يديه الخدم بالحراب المفضضة ، ورتب له "بيوك باشى" وقلقات ، عينوا لهم مراكز بأخطاط البلد يجلسون بها ، وسكن المذكور بيت "يحى كاشف الكبير" بحارة عابدين ، أخذه بما فيه من فرش ومتاع وجوارى وغير ذلك ، والمذكور من أسافل نصارى الأروام العسكرية القاطنين بمصر ، وكان من الطبجية عند محمد بك الألفى ، وله حانوت بخط الموسكى يبيع فيه القوارير الزجاج أيام البطالة ." [عجائب الآثار ص١٩٥] .

الأرض والسيطرة عليها سيطرة كاملة ، حتى لا تدع للمقاومة طريقا إلا طريق الاستسلام العاجز للمصير المظلم ، مصير محتم لا يستفيق الشعب إلا وهو مرتكس فى ظلمائه عاجزا غير قادر على طلب المخرج من ظلماتها المدلهمة ، فى "قاهرة جديدة" زاهرة زاهية الألوان ، قامت على أنقاض "قاهرة قديمة" مدمرة غابت فى قتام الذكريات !!. ››[1] .

تلبيس نابليون على المسلمين :

حبك المستشرقون لنابليون اللعبة وعلى رأسهم "فانتور" و"مارسل" لمعرفتهم بأحوال البلاد الإسلامية وطبيعة أهلها ، فأعدوا له منشورا على ظهر البارجة "أوريان" – أى الشرق – قبل رسوها على شاطئ الإسكندرية بعدة أيام ، وصاغوه فى لغته العربية الركيكة بواسطة المطبعة العربية التى جاءوا بها معهم[2]. وسجله الجبرتى فى تاريخه بنصه ، وأمر "نابليون" بتوزيعه على المسلمين عن طريق جواسيسه الذين بثهم فى النواحى والمسلمين الذين أسرهم من جزيرة مالطة واستقدمهم معه على ظهر أسطوله .

وقد ابتدأه بالبسملة ، وكلمة التوحيد ، وادعى أنه محترم للنبى ﷺ وللقرآن الكريم ، وأنه يعبد الله تعالى ، وأن الجميع متساوون عند الله ، لا فضل بينهم إلا بالعقل والعلم (هكذا !!) ، وأنه والفرنسيون مسلمون مخلصون ، ودلل على كلامه – حسب زعمه – بأنه نزل "رومية" وخرب كرسى البابا الذى كان

---

(١) رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا ص١٤٩–١٥٠ .

(٢) تاريخ الحركة القومية . الرافعى ٨٧/١ .

جمع نابليون لهذه المطبعة أحرفا عربية وفرنسية ويونانية وعبرية وسريانية ، وعهد بإدارة هذه المطبعة إلى أحد المستشرقين أعضاء اللجنة العلمية ، وعين كاتم سره وترجمانه "فانتور" مفتشا عاما لها ، بحيث كان لا يطبع بها شئ إلا بأمره شخصيا ، وكانت منشورات ومطبوعات نابليون فى مصر تطبع فى هذه المطبعة . [يوسف باشا القرمانلى والحملة الفرنسية على مصر ص٢٠٩ ، بونابرت فى مصر ص١٧٩–١٨٠] .

دائما يحث النصارى على محاربة الإسلام ، وأنه قصد مالطة وطرد منها "الكواللرية" الذين زعموا أن الله تعالى طلب منهم مقاتلة المسلمين . وأنه جاء لتحريرهم من نير المماليك أعداء العقل والعلم (!!) ، وأنه محب للسلطان العثماني يحب أحبابه ويعادى أعدائه ، وكل هذا لمحاولة استمالة المصريين إليه .

وأصدر فى نفس المنشور عدة مواد تلزم المصريين بالخضوع لأوامر الفرنسيين ، وتوعدهم بالويل والثبور إن هم قاوموا [١] .

وإمعانا فى التلبيس كان يرتدى العمامة أحيانا ، وأمر ببناء مسجد وإطلاق اسمه عليه ، وكان يحضر المولد مع الناس [٢] . بل ويتظاهر بالصلاة مع الشيوخ أيضا [٣] .

وصفه هيرولد بأنه كان أشبه بحرباء بشرى يستطيع فى لحظة أن ينقلب من المحارب المدمر إلى المشرع أو العالم أو اللاهوتى [٤] .

كل هذه الألاعيب الاستشراقية والتلبيسات النابليونية لم تنطل على الشعب المصرى المسلم ، فنظروا إليهم على أنهم جاءوا لاحتلال الديار وطمس معالم الدين وإذابة المسلمين فى الغربيين والاستيلاء على خيرات الأمة ، فأبغضوهم أشد البغض وقاوموهم ، وهذا ما صرح به المسيو "بوسليج" أحد علماء الحملة وغيره من الفرنسيين المصاحبين لها كما سيأتى .

يقول الدكتور محمد ضياء الدين الريس – رحمه الله – : " وقد نظر المصريون أول ما نظروا لقائد الحملة وجنوده على أنهم أبناء أولئك "الفرنسيين" الذين

(١) انظر عجائب الآثار ١٨٢/٢-١٨٤ ، بونابرت فى مصر ص٨٠-٨١ .

(٢) انظر عجائب الآثار ٣٠١/٢-٣٠٥ ، بونابرت فى مصر ص١٦٢-١٦٣ ، ص١٩٩ .

(٣) بونابرت فى مصر ص٢٣٩ .

(٤) المصدر السابق ص١٦٥ .

حاولوا أن يغزوا مصر أيام الحروب الصليبية ، فباؤوا بالفشـــل ، وأدت إحـــدى حملاتـــهم إلى أسر مليكهم لويس التاسع وسجنه فى دار ابن لقمان ! ، ولم تتغـــير هذه النظرة فى جوهرها أثناء مقام الحملة ، بالرغم من اختلاف الأحوال فى مصـــر عما كانت فى ذلك العهد ، فظلوا يناوؤون بكل الوسائل – وإن كانت ناقصـــة – حتى استطاعوا – مثل أسلافهم – أن يخرجوا الغاصب ولو بعد حين ، ويجلوه عـــن بلادهم . " [1] .



(1) تباشير النهضة فى العالم الإسلامى ص ٥٣-٥٤ .

الأغراض الحقيقية للحملة الفرنسية ومآسيها

نظر المصريون – كما سبق – للحملة الفرنسية على أنها حلقة من سلسلة الحملات الصليبية على العالم الإسلامى ، جاءت لتحقيق أغراضها المرسومة لها والتى تظهر الوجه الحقيقى القمئ لحملة التنوير !!! .

ومن الأغراض التى عانى منها أبناء مصر على أيدى رجال الحملة ما يلى :

أولا : وأد اليقظة الإسلامية :

وأد اليقظة الإسلامية بالمنطقة الإسلامية ومنها مصر كان أحد الأغراض الرئيسية التى تحركت لأجلها الحملة الفرنسية بل والحملة الإنجليزية أيضا بفضل العون الاستشراقى الذى اشتد أواره فى هذه الفترة ، وهذا ما جعل الدولتين تتصارعان فيما بينهما على الظفر بالمنطقة وحوز السبق بالقضاء على اليقظة الإسلامية التى بدأت تتنامى فى مصر والجزيرة العربية . يقول العلامة محمود شاكر :" وأما فرنسا التى عادت من الهند تلعق جراح هزائمها ، فكان وقع النذير مختلف الأثر، مختلف الأسلوب ، فى قصة طويلة من تنبه "الاستشراق" لما يجرى فى دار الإسلام . فإذا كانت إنجلترا قد ظفرت بنصيب الأسد فى الهند ، فإن لفرنسا نصيبا قريبا تعد العدة للظفر به ، لا يفصل بينها وبينه إلا بحر ضيق ، ممكن أن يكون لها عليه السلطان الأعظم . ومن قبل ظلت تدبر الأمر زمنا طويلا لتظفر بهذا النصيب فى مصر والجزائر ، ومعنى ذلك أنها عادت مرة أخرى أخرى تفكر فى اختراق دار الإسلام ، الأمر الذى كان مستعصيا نحو عشرة قرون أو أكثر . وكان نذير "الاستشراق" يومئذ يحذر المسيحية الشمالية من هذه "اليقظة" المخوفة العواقب: يقظة اللغة على يد الشيخين الكبيرين البغدادى والزبيدى وتلامذتهما ، ويقظة "علوم الحضارة" على يد الشيخ الجبرتى الكبير وتلاميذه .

"يقظة" فى دار تضم أقدم بيتين من بيوت العلم على ظهر الأرض ، عاشا

جميعا متواصلين اثنى عشر قرنا موئلا للعلم والعلماء ، هما "الجامع العتيق" بالفسطاط (جامع عمرو بن العاص رضى الله عنه) و"الجامع الأزهر" بالقاهرة ، وهما اسمان يترددان فى أرجاء دار الإسلام من المشرق إلى المغرب ، ومن الشمال إلى الجنوب . فاليقظة التى تأتى من قبلهما سوف تؤدى إلى يقظة دار الإسلام كلها ، بما فيها اليقظة المتفجرة المتحركة الجديدة فى جزيرة العرب : فإذا تم اندماج اليقظتين فلا يعلم إلا الله كيف يكون المصير ؟" [1] .

" ولا جدال فى أن الفترة التى سبقت الغزو الفرنسى ، كانت المرحلة التى وصل فيها تخلفنا إلى أبشع صوره ، ومع ذلك فتاريخ الجبرتى حافل بالمعلومات عن نوعية اهتمامات الشيوخ فى هذه الفترة ، مما ينفى تماما الصورة السهزلية التى يقدمها مؤرخوا الحملة وتلاميذهم ، عن انبهار الشيوخ بتكنولوجيا الفرنسيس من حيث كونها تكنولوجيا ، وإن كانوا قد انبهروا – فعلا – بتفوق الفرنسيس." [2].

ومما حفل به تاريخ الجبرتى ما ذكره عن أبيه "الجبرتى الكبير" الذى كان بارعا فى علوم كثيرة ، وقصده الطلاب من كل مكان فى داخل مصر وخارجها . حتى الأوربيون أنفسهم قصدوه فى مصر وتتلمذوا على يديه فى العلوم التجريبية . وعادوا إلى بلادهم لتطبيق ما حصلوه نظريا هناك فى ديارهم مساهمة مجانية من علماء مصر فى الثورة الصناعية فى أوربا .

وما "الجبرتى الكبير" إلا مثال للكثيرين من العلماء الذين عاصروه أو

---

(١) رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا ص ١٢٩-١٣٠ ، وانظر تاريخ العالم الإسلامى د. إبراهيم أحمد العدوى ٣٢٨/٢-٣٢٩ . مكتبة الأنجلو ١٩٨٦م ، ودخلت الخيل الأزهر . محمد جلال كشك ص١٦ ص٧٩-٩٧ . الزهراء للإعلام العربى . الثالثة ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .

(٢) ودخلت الخيل الأزهر . ص٨٩ .

جاءوا بعده لإحياء اليقظة الإسلامية بمصر وغيرها من بلدان العالم الإسلامى[١] .

و"الجبرتى الصغير" المؤرخ الذى عاصر الحملة كان هو الآخر أحد هؤلاء العلماء ، وقد نقل إلينا ما دار فى المجمع العلمى الذى أنشأه نابليون بالقاهرة فى (٢٢أغسطس ١٧٩٨م) عقب احتلاله مصر بزمن وجيز[٢] ، وفرق فيما شاهد بين الحيل التى لا تنطلى على عالم مثله كحيلة البالونة القماش التى ادعوا أنها ستسافر إلى فرنسا وأنها ستحمل الناس والرسائل ، لكن سرعان ما سقطت وظهر كذبهم حتى قال ساخرا :" بل ظهر أنها مثل الطيارة التى يعملها الفراشون بالمواسم والأفراح ." ، فرق بين مثل هذه الحيل وبين العلم الحقيقى الذى يقدر ويحترم ويعرفه أمثاله . كما فرق بين التكنولوجيا الإرهابية القائمة على التجسس والتدمير والتكنولوجيا العمرانية النافعة للبشرية [٣] .

قال الأستاذ محمد جلال كشك متسائلا وساخرا من عقول أدعياء التنوير الذين رموا علماء مصر بكل نقيصة ونسبوا للفرنسيين كل فضل فى دحضه لافتراءاتهم: " أيهما أكثر علمية .. الفرنسيون الذين كانوا يأملون فى طيران البالونة إلى أن تختفى عن الأنظار فيزعمون أنها طارت إلى فرنسا ! .. والذين أشاعوا أنها يمكن أن تستخدم فى التجسس للإرهاب وخلافه ؟! أم الجبرتى الذى يفهم سبب انتفاخها وهو امتلاؤها بالغاز .. ثم ارتفاعها بسبب طلب الدخان الصعود .. وهو صحيح تماما .. ثم الذى يعلق فى موضوعية كاشفا الخدعة ، أنها لا تزيد عن تطوير فى الطيارة التى اعتاد الفراشون عملها فى الأفراح ؟"[٤] .

---

[١] انظر ودخلت الخيل الأزهر ص٩٠-٩٧ حيث ذكر الأستاذ محمد جلال كشك أسماء علماء كثيرين غير الذين ذكرهم الجبرتى ساهموا فى النهضة العلمية بمصر قبل زمان الحملة الفرنسية وبعد قدومها .

[٢] عجائب الآثار ٢٣٠/٢ .

[٣] راجع عجائب الآثار ٢٣١/٢-٢٣٦ .

[٤] ودخلت الخيل الأزهر ص٤٤٥ .

وقال معلقا على منع الفرنسيين أبناء مصر من العمل فى مصنع النسيج الـــذى أورد الجبرتى ذكره : " ولا يجوز أن نتوقف طويلا عند حديـــث التكنولوجيـــا ، بعدما عرفناه عن موقف رجال الاحتلال فى قصة مصنـــع "الجوخ" حيث رفضـــوا السماح للعمال المصريين بالعمل فى المصنع خوفا من تعلمهم أسرار الصناعة ."[١].

فهل يصدق عاقل – بعد هذا – أن المعهد العلمى كان لبعث النهضة العلميـــة بمصر وهم الذين جاؤوا لإماتتها ؟! .

إن هذا المعهد كان فرعا للمجمع العلمى الفرنسى بباريس ، أنشـــأه نـــابليون ليكون مكملا له هناك ، وخادما للأغراض الاستشراقية ، ومذللا للعقبـــات الـــتى تعترض طريق الجيش الغازى ، يصرح هيرولد فيقول : " كـــان هـــدف حملـــة بونابرت تحويل مصر إلى مستعمرة لفرنسا تجنى من ورائها كسبا . ولتحقيق هـــذا الـــهدف لم تكن اللجنة العلمية أقل أهمية من الجيش ."[٢] ، وكتـــاب وصـــف مصر[٣] كان الغرض منه خدمة الاستشراق بالدرجة الأولى .

وخبرنى بربك هل ورد عن أحد من أبناء مصر من المعاصرين للحملة من أنـــه أو غيره تنور بتلمذته على أيدى علماء الحملة ، أو حتى بحضوره مناقشـــات المعـــهد العلمى ؟! :.

وتقدم أن الجبرتى كما أخبر عن نفسه وسجل ما شاهد لم ينسحق أمام ما فعلـــه الفرنسيون ، وما حدث من الشيوخ كان مجرد انبهار ببعض التجارب ، لكـــن لم يتعلم أحد منهم أو من تلامذتـــهم . يقول هيرولد :" وتجمع شهادة شهود العيـــان

---

(١) المرجع السابق ص٤٤٧ .

(٢) بونابرت فى مصر ص١٩٠ .

(٣) هو كتاب يحتوى على عشرة مجلدات من النصوص ، وأربعة عشر مجلدا من اللوحات ، وقد نشـــر بـــين عامى ١٨٠٩م ، ١٨٢٨م [بونابرت فى مصر ص١٨١] .

الفرنسيين على أن زوار المجمع المسلمين لم يقع من نفوسهم ما رأوه أى موقع."[١]

وأما المطبعة التى جاء بها نابليون معه ، وضخم كتاب مادة التاريخ لأبنائنا فى المراحل التعليمية وأدعياء التنوير شأنها ، فإن نابليون قد اصطحبها معه لخدمة المآرب الاستعمارية ، بكتابة المنشورات التى تخضع الشعب لأوامر المحتل بالعربية ، فهى إذن قد جئ بها لمصالحهم دون أن يستفيد المصريون منها شيئا . وسنعلم بعد حين مصدرها باعتراف المؤرخين الفرنسيين ، وهم قد أخذوها معهم حين رحلوا إلى بلادهم . أما المطبعة الأميرية التى عرفت فيما بعد بمصر وخدمت الجوانب العلمية ، فقد جئ بها فى عهد محمد على [٢].

وأما حجر رشيد الذى صدعوا رءوسنا بالحديث عن فك رموزه فسيأتى الحديث عنه فى اعتراف الكاتب الفرنسى "ليجران" .

الحق أن القوم ما جاءوا لبعث نهضة بديارنا ، بل لإماتتها . وحق لرجل مثل "هيرولد" أن يقول فى ملاحظاته على الحملة : " فمصر كان مآلها إلى التغير ، حتى ولو لم يظهر بونابرت قط فى سمائها ، وآيات الفن وروائعه فى الأقصر والكرنك كان مصيرها إلى الكشف ، حتى ولو لم يزحف "ديزيه" قط إلى الصعيد ، والرموز الهيروغليفية كانت ستفك ، حتى ولو لم يكشف حجر رشيد إلا بعد الحملة بسنوات ، وقناة السويس كانت ستحفر حتى ولو لم يأمر بونابرت بمسح برزخ السويس ."[٣]

---

(١) بونابرت فى مصر ص١٨٦ . وإن كان قد تمحل فى التعليق على هذه الشهادة .

(٢) انظر تاريخ الحركة القومية ١/١٤٠ .

(٣) بونابرت فى مصر ص٤٠٣ .

ثانيا : سرقة نفائسنا العلمية :

كان من أغراض الحملة الفرنسية إتماما لوأد اليقظة الإسلامية فى ديارنا سرقة كنوزنا العلمية التى زخرت المكتبة العربية الإسلامية بها ، تحدث الجبرتى فى مقدمة تاريخه عن كتب العلم التى ملئت بها الخزائن وفقدان الكثير منها فقال : " ثم ذهبت بقايا البقايا فى الفتن والحروب ، وأخذ الفرنسيس ما وجدوه إلى بلادهم . " [١] .

فهو يخبر عن نية القوم المبيتة لنفائسنا العلمية ، ومجيئهم للسطو عليها وإرسالها إلى ديارهم للاستفادة بعطاء العقل المسلم الذى قدمه لنا الأسلاف من آبائنا لدفع عجلة التقدم الصناعى عندهم وإيقافه عندنا ، وتمكين المستشرقين من الإطلاع على تراثنا مباشرة دون واسطة للتنقيب عن ثغرة لبث الشبهات الفكرية بين أبنائنا .

يقول العلامة محمود شاكر رحمه الله عن هذه السرقة :" ولكنهم – أى الفرنسيون – لم يرحلوا عن القاهرة المخربة ، وعن الشعب الذى استنزفوا ثرواته بالضرائب والإتاوات مدة ثلاث سنوات حتى سرق "المستشرقون" المصاحبون للحملة الفرنسية ، و"مستشرقون" آخرون من كل جنس ، سرقوا كل نفيس من الكتب ، وكانت القاهرة يومئذ من أغنى بلاد العالم بالكتب . ودليل السرقة قائم بين أعيننا إلى هذا اليوم ، يصيح شاهدا على نفسه بالسطو على ذخائرنا التى يمنون علينا بعد ذلك ، فى حياتنا هذه الأدبية الفاسدة : أنهم حفظوها لنا ، ونشروا لنا نفائسها . دليل السرقة قائم فى جميع مكتبات أوربة ، صغيرها وكبيرها ، فى فرنسا وإنجلترا وهولنده وروسيا وغيرها من البلدان ، وفى الأديرة والكنائس ، وفى جميع أرجاء العالم المتحضر !! وكان همهم الأكبر يومئذ هو السطو على كتب "علوم

---

[١] عجائب الآثار ١/١١ .

الحضارة" أولا ، ثم على كتب "التاريخ" ثم على كتب "الآداب" كلها بلا تمييز . ورحم الله الشيخ الجبرتى المؤرخ ، فإنه أرخ لدمار القاهرة ، ولكنه بغفلته لم يؤرخ لنا تاريخ هذا السطو على كتب المساجد والمدارس وبيوت العلماء والأمراء والمماليك المصرية إلا فى مواضع متفرقة قليلة بلا بيان واضح ، وإنما هى الحسرة لا غير "[1].

ثم يذكر الغرض الأساسى من وراء هذا السطو فيقول :" لم يكن هذا السطو الجائح على كتب دار الإسلام فى القاهرة ، والذى تولى كبره "مستشرقو" الحملة الفرنسية وأعوانهم من اليهود ومستشرقو سائر بلاد المسيحية الشمالية — لم يكن هذا سطوا لمجرد رغبة "الاستشراق" فى أداء عمله ، من استمداد لثقافة أممه من علم دار الإسلام المسطور فى الكتب ، ولشدة حاجة يقظتهم ونهضتهم يومئذ إلى هذا العلم ، لا ، بل كانت الغاية الأولى المقدمة على كل غاية ، هى تجريد دار الإسلام فى القاهرة من أسباب "اليقظة" التى جاءت الحملة الفرنسية لوأدها فى مهدها ، والقضاء عليها قبل أن تتفاقم . ووفرة هذه الكتب النفيسة فى القاهرة يومئذ ، هى التى يسرت الطريق إلى هذه "اليقظة" التى حمل عبء البدء بها "الجبرتى الكبير" وتلامذته و"البغدادى والزبيدى وتلامذتهما" ، فكان لا بد لفلول الاستشراق وفلول الحملة الفرنسية من إتمام ما جاءت الحملة من أجله ، فهو الهدف الأكبر: وأد اليقظة فى عقر دارها ."[2] .

ثالثا : الاعتداء على حرمة الأزهر وغيره من المساجد :

تمتع الأزهر على مدى تاريخه بمكانة مرموقة لدى المسلمين جميعا . ولا ريب ، فهو قد مثل للأمة مركز القيادة وعبر عن إرادتها بمواقف علمائه الجريئة لإعادة

---

(١) رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا ص١٤٢-١٤٣ .

(٢) المرجع السابق ص١٤٤-١٤٥ .

الحقوق لأصحابــها حين يعتدى عليها جائر ، وهو جامعة علمية عريقة قـــادت المسلمين نحو التقدم فى جميع المجالات .

لأجل هذا كان شغل الغزاة الفرنسيين الشاغل هو تحطيم هذه المكانة التى احتلها الأزهر فى قلوب المسلمين بالاعتداء على حرمته دون مراعاة لمشاعر أحد منهم .

يصف الجبرتى شنائع الفرنسيين إبان ثورة القاهرة الأولى ، ومـــا أحدثـــوه فى الجامع الأزهر خاصة فيقول :" ثم دخلوا إلى الجامع الأزهر وهم راكبون الخيـــول وبينهم المشاة كالوعول ، وتفرقوا بصحنه ومقصورته ، وربطوا خيولـــهم بقبلتـــه ، وعاثوا بالأروقة والحارات ، وكسروا القناديل والسهارات ، وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة ونـــهبوا ما وجدوه من المتـــاع والأوانى والقصـــاع والودائـــع والمخبآت بالدواليب والخزانات ودشتوا الكتـــب والمصـــاحف ، وعلـــى الأرض طرحوها وبأرجلهم ونعالـــهم داسوها ، وأحدثوا فيه وتغوطوا وبالوا وتمخطـــوا ، وشربوا الشراب ، وكسروا أوانيه وألقوها بصحنه ونواحيه ، وكل من صـــادفوه به عروه ومن ثيابه أخرجوه ."[1] .

وقال "ريبو" واصفا تأثير ضرب مدافعهم فيه :" أوشك الجـــامع الأزهـــر أن يتداعى من شدة الضرب فتدفن تحت أنقاضه الجماهير الحاشدة فيه ، وأصبح الحـــى المجاور للأزهر صورة من الخراب والتدمير ، فلم يكن يرى فيه إلا بيـــوت مدمـــرة ودور محرقة ، ومات تحت الأنقاض آلاف من السكان الآمنين كان يسمع لـــهم أنين موجع وصيحات مرعبة ، وكانت الجهات القريبة من الأزهر ولاسيما شـوارع الغورية والصنادقية مسرحا لـــهذه المشاهد الفظيعة ." [2] .

---

[1] عجائب الآثار ٢/٢٢٠-٢٢١ .

[2] تاريخ الحركة القومية ٢٧٨/١

أرأيت بشاعة كهذه التى يذكرها الجبرتى على دقته فى التعبير ، بل و"ريبو" وهو من بنى ملتهم وجلدتهم من صنيع الغزاة الفرنسيين بالأزهر ؟! أهذه أوصاف حملة التنوير ، أن يقصد هؤلاء أماكن العبادة وقلاع العلم لضرب الأمة فى عقيدتها وحضارتها بهذه الصورة البشعة ؟! .

إن هذه أول مرة فى التاريخ يقتحم فيها الأزهر على هذا النحو ، وتهدر كرامته بهذا الأسلوب البربرى الذى لا يشبهه إلا الاحتلال الصليبى لبيت المقدس فى القرن الحادى عشر للميلاد ، وإحراق الاحتلال الصهيونى للمسجد الأقصى وصنيع الصرب فى شرق أوربا والهندوس فى شبه الجزيرة الهندية فى القرن العشرين بالمساجد هناك .

وفى كتاب "نقولا الترك" أن نابليون رفض الجلاء عن الأزهر ، وأن هذا الاحتلال قد أحدث أثرا فظيعا فى الجماهير المصرية وقياداتها ، وما زال العامة فى مصر حتى حين يضربون المثل على أبشع ما يمكن أن يقع بقولهم : "الخيل دخلت الأزهر" (١) .

وهل اقتصر الاعتداء على الجامع الأزهر ؟

لقد تعداه إلى غيره من المساجد الكبيرة الأخرى ، مثل مسجد عمرو بن العاص أول مسجد بنى فى مصر وهو المعروف باسم "الجامع العتيق" ، فقد عمر المسجد قبل قدوم الحملة الفرنسية بعام واحد ، فإذا به يعتدى على حرمته ويخرب على أيدى رجال التنوير والتعمير !!! يقول الجبرتى متحسرا على ما جرى له على أيدى الغزاة المستعمرين : " فلما حضرت الفرنساوية فى العام القابل (أى عام ١٢١٣هـ) جرى عليه ما جرى على غيره من الهدم والتخريب وأخذ أخشابه

---

(١) انظر ودخلت الخيل الأزهر ص٢٢٠ .

حتى أصبح بلقعا أشوه مما كان (أى قبل الإصلاح) فيا ليتها لم تتصدق .»[١] .

واتخذوا من مسجد الظاهر قلعة ، وجعلوا من مئذنته مرصدا وأقاموا فى داخله عدة مساكن لجندهم ، وحظائر لخيلهم ، ووضعوا على أسواره المدافع [٢] .

كما هدموا مساجد أخرى بالجملة ، وحولوا بعضها إلى خمارات كالذى فعلوه بمسجد "الرويعى" بالقاهرة [٣].

رابعا : التنكيل بقادة الأمة :

أقدم رجال الإخاء والحرية والمساواة على عمل إجرامى آخر لم يسبق له مثيل فى تاريخ مصر ، ويضم إلى سجل الحملة الوحشى ، ذلك العمل هو الانتقام من قادة الأمة – علماء وتجارا – الذين كانوا العقبة الكأداء أمام أطماعهم الصليبية ، فقد سعوا للحط من مكانتهم التى تمتعوا بها لدى الحكام والمحكومين والتنكيل بهم على نحو لم يشهده تاريخهم من قبل ، وهم الذين ادعوا أنهم جاءوا لتحرير الأمة من نير المماليك !! .

لقد كان لقادة الأمة مكانة معترف بها فى عهد المماليك ، ولم يكن المملوك يتجرأ على المشايخ إلا بجرأة المشايخ على الدين وتكالبهم على الدنيا إلى حد الاستهتار الفاضح بتعاليم الدين ، وارتكاب السلوك المعيب فى حدود فهم المملوك.. وحتى إذا وقع ذلك من بعض المنتسبين إلى المتعممين ، وحاول مملوك أن يستغله فتعدى الحدود ، وتطاول عليه ، فإنه يجابه بمقاومة صلبة من كبار المشايخ وموقف يصل إلى سب الأمير وإبطال قراراته بالقوة [٤] .

---

(١) عجائب الآثار ٤٥٠/٢ .

(٢) مصر فى القرن الثامن عشر ص٦١ .

(٣) عجائب الآثار ٤٣٥/٢ .

(٤) ودخلت الخيل الأزهر ص ٧٨ .

وقد ذكر الأستاذ محمد جلال كشك نماذج عملية لذلك وقعت قبيل مجئ الحملة الفرنسية إلى مصر [١].

أما رجال حملة الإخاء والحرية والمساواة ، فإن قائدهم نابليون قبض فى أعقاب ثورة القاهرة الأولى على عدد كبير من علماء الأزهر وسجنهم بالقلعة واشتد فى إهانتهم ، ثم أمر بقتلهم وفصل رءوسهم عن أجسادهم ، منهم الشيخ إسماعيل البراوى ، والشيخ يوسف المصيلحى ، والشيخ عبد الوهاب الشبراوى ، والشيخ سليمان الجوسقى (شيخ طائفة المكفوفين) ، والشيخ أحمد الشرقاوى ، وكلهم من أواسط علماء الأزهر . وحكم على تسعة آخرين غير هؤلاء بالإعدام غيابيا . [٢]

كما أصدر نابليون أمره فى (٥سبتمبر ١٧٩٨م) بإعدام السيد محمد كريم حاكم الإسكندرية رميا بالرصاص ومصادرة أملاكه ، ونفذ الحكم فى اليوم التالى بميدان الرميلة بالقاهرة بعد مدة من سجنه بها [٣].

" وحمل رأسه ليعرض على الملأ فى الشوارع ، يقول "نقولا الترك" : إن قتله أحدث أثرا سيئا فى الأهالى ؛ لأنه من سلالة النبى ." [٤] ﷺ .

وكان قد كتب للجنرال "رينيه" يقول : " فى كل ليلة نقطع نحو ثلاثين رأسا أكثرها لزعماء الثورة . وفى اعتقادى أن هذا سيعلمهم درسا نافعا ." [٥]

---

[١] راجع المصدر السابق ص٧٧-٩٧ تحت عنوان : "المتعممون" .

[٢] انظر بونابرت فى مصر ص٢١٢ ، تاريخ الحركة القومية للرافعى ٢٨٤/١ ، الجبرتى ٢٧٦/٢-٢٨٠ ، تباشير النهضة فى العالم الإسلامى ص٥٢-٥٦ ، مصر فى القرن الثامن عشر . محمود الشرقاوى ١٢٦/٣-١٢٨ . مكتبة الأنجلو ١٩٥٦م .

[٣] انظر تاريخ الحركة القومية ١٨٤/١-١٨٥ .

[٤] بونابرت فى مصر ص١٥٥ .

[٥] المصدر السابق ص٢١٣ .

كانت هذه أول مرة يتجرأ فيها حاكم على إعدام قادة الأمة ومعاملتهم كما لو كانوا مجرمين يستحقون الإهانة والتنكيل والقتل ، و لم ينج منهم إلا من سار فى فلكهم ، أما من وقف فى وجههم وقاد الأمة لصد عدوانهم ، فذلك مجرم يستحق القتل مهما كانت مكانته عند الناس .

لقد أخذوا الشيخ "السادات" أبرز المشايخ ، والرجل الثانى بعد "الشرقاوى" و"رئيس لجنة المصادرات" ، أخذوه وحبسوه بالقلعة ، وحكموا عليه بالإعدام ، ثم خفف الحكم بعد شفاعة الشافعين إلى الحبس والغرامة المالية التى ألجأته إلى بيع كل ما فى بيته من متاع وغيره ، ومع ذلك لم يكف المبلغ فى دفع الغرامة الباهظة التى فرضوها عليه ، فحبسوا أولاده وزوجته معه ، فكانوا يضربونه فى الصباح أمامها خمس عشرة عصا وفى الليل مثل ذلك ، والزوجة تبكى وتصيح ، لكن بدون جدوى نكالا فى شيوخ الأزهر [١] .

وهذه مناسبة نادرة للشيخ وزوجته لفهم روح الحضارة الحديثة ، وممارسة التحرر الشامل الذى جاءت به حملة التنوير !! .

ولا بد بهذه المناسبة من التعرض للتنكيل الوحشى الذى ظهر فى الحكم على الشاب الأزهرى سليمان الحلبى ورفاقه الثلاثة الشوام الذين قادهم إيمانهم القوى دفاعا عن العقيدة والأرض والعرض إلى التخلص من "كليبر" قائد جيش الاحتلال المتغطرس المعتدى القاتل [٢] .

---

[١] انظر عجائب الآثار ٣٥٧/٢ ، دخلت الخيل الأزهر ص٣١٤-٣١٦ .

[٢] تكلم الأستاذ محمد جلال كشك عن دقة التخطيط لاغتيال كليبر ، والبراعة فى اختيار العناصر وإحكام التنفيذ ، مع وضع الاعتبار لكل الاحتمالات المستقبلية ثم قال :" اهتم التنظيم بكل التفاصيل حتى الفتوى بشرعية الإعدام لم ينسها .. وستبقى خالدة فى التاريخ تلك الخلية الفدائية الأولى المكونة من ثلاثة من طلبة الأزهر .. الذين نفذوا بنجاح نادر عملية ممتازة ، ثم احتفظوا بسر التنظيم رغم التعذيب الوحشى {يتبع}

فقد سرد الجبرتى[1] عملية الاغتيال والقبض على "سليمان الحلبى" . ومحاكمته ، وما انتهى إليه القاتلون من حكم همجى وحشى لم يدانيهم فيه أحد قبلهم حتى التتار على ما عرفوا به من وحشية .

ينقل إلينا الجبرتى نص حكم قضاة حملة الإخاء والعدالة والمساواة المترجم إلى العربية كما وصله والذى يقول : " وأفتوا أن سليمان الحلبى تحرق يده اليمين ، وبعده يتخوزق ، ويبقى على الخازوق لحين تأكل رمته الطيور ، وهذا يكون فوق التل الذى برا قاسم بك (هكذا) ويسمى تل العقارب ، وبعد دفن سارى عسكر العام "كلهبر" ، وقدام كامل العسكر وأهل البلد الموجودين فى المشهد . ثم أفتوا بموت السيد عبد القادر الغزى مذنب أيضا كما ذكر أعلاه ، وكل ما تحكم يده عليه يكون حلال (هكذا) للجمهور الفرنساوى ، ثم هذه الفتوى الشرعية (ولا ندرى من أين تكتسب هذه الشرعية !!) تكتب وتوضع فوق البيت الذى يختص (هكذا) بوضع رأسه ، وأيضا أفتوا على محمد الغزى وعبدالله الغزى وأحمد الوالى أن تقطع رؤوسهم وتوضع على نبابيت ، وجسمهم يحرق بالنار ، وهذا يصير فى المحل المعين أعلاه ، ويكون ذلك قدام سليمان الحلبى قبل أن يجرى فيه شئ

{تابع}.. فكانت اعترافاتهم فى أضيق حدود ، (...) فصلابة خلية الأزهر تؤكد التربية التنظيمية .. ففى البداية كان الإنكار التام ثم الاعتراف على النفس ، وعندما ترتفع درجة التعذيب ، وتبلغ قسوته حدا لا يستطيع الجسد أن يتحمله مهما أرادت النفس .. يكون الاعتراف فى حدود ما يعلمه المحققون فعلا .. مع الحرص فى نفس الوقت ، رغم بشاعة التعذيب ، على سلامة التنظيم ، وسلامة القيادة ، سواء السياسية أو التنظيمية ، وسلامة الشرف من أن تشينه اعترافات غير محدودة لا تهدف إلا إلى إطالة التحقيق وحفظ الحياة .. والعادة فى مثل هذه التشكيلات ... أن تعتبر الخلية المعينة ، مهمتها منتهية بمجرد تنفيذ العملية ، فتعترف على نفسها كلون من البطولة وضرب المثل للآخرين ، واعتزازا بما حققته من ناحية ومن ناحية أخرى لحصر خسائر التشكيل الذى تتبعه ، فهى وقد سقطت فعلا فى يد السلطة قد انتهى دورها .. وباعترافها تهدئ المحقق وتصرفه – إلى حد ما – عن التنقيب . " [ودخلت الخيل الأزهر ص٣٤٦-٣٤٧] .

[1] راجع تفاصيل ذلك فى عجائب الآثار ٢/٣٥٨-٣٨٩ .

(هكذا !!!) هذه الشريعة والفتوى لازم أن ينطبعـــا باللغـــة التركيـــة والعربيـــة والفرنساوية ، من كل لغة خمسمائة نسخة لكى يرســـلوا ويعلقـــوا فى المحـــلات اللازمة ." [١] .

هذا هو نص الحكم بلغته العربية الركيكة كما وصل إلى الجـــبرتى وســـجله فى تاريخه كما هو مع باقى عناصر المحكمة حتى يطلع عليه أدعيـــاء التنويـــر (؟!!!) حيث نفذ القوم كل حرف ورد فى الحكم على سليمان ورفاقه [٢] .

ولعل العبارة الأخيرة الواردة فى الحكم هى التغيير الوحيد الذى يمـــيز القـــرن التاسع عشر عن القرن الرابع عشر .. فخان التتـــار لم يكن بوســـعه أن يصـــدر حكما أبشع ، ولا أكثر بربرية من هذا الحكم . ولكنه لم يكن بوســـعه أن يطبـــع نصه بثلاث لغات . وهذا الفارق التكنولوجى ، لم يكن يهم كثيرا "سليمان الحلبى" الذى سيشاهد ثلاثة من رفاقه تقطع رقابـــهم ، ثم يحرقون أمام عينه ، أمـــا هـــو فتحرق يده اليمنى وهو حى ، وتحرق وهى متصلة بجسمه ، يقيد ويوضـــع فـــوق الخازوق ، ثم توضع يده اليمنى فوق فحم ملتهب لتشوى وهو ينظر ، ثم يطلب منه أن يهتف ثلاثا بالثورة القانونية التى أدخلها جلادوه فى الشرق الإسلامى المتخلف ! يهتف بحياة "أول محضر تحقيق" .. أول محكمة تشكل على الأسس القانونية الحديثـة فى مصر المحروسة ... أول مطبعة تطبع قرار التنكيل به .. أول خازوق ترفـــرف عليه راية الثورة الفرنسية ! [٣] .

وتلاميـــذ المدرســـة الاستعماريـــة من أمثال "لويس عوض" بـــهرهم شـــكل المحاكمة، غير أن ضميرهم لم يهتز لخروج الغزاة فى كل مكان مـــن أرض مصـــر

---

[١] عجائب الآثار ٣٨٩/٢ .

[٢] انظر تنفيذ الحكم فى المصدر السابق ٣٩٠/٢ .

[٣] ودخلت الخيل الأزهر ص٣٥٠ .

والشام يقتلون النساء والأطفال بلا هوادة ولتنكيلهم بوحشية لا مثيل لها فى التاريخ بالمدافع عن أرضه وعرضه على النحو المشار إليه فى الحكم [١] .

لقد اهتز ضمير "كرستوفر هيرولد" على تحيزه لبنى ملته وجلدته ، وهو يصف محرقة "جنكيز خان الفرنسى" التى أعدها للأبطال الشجعان فى كتابه "بونابرت فى مصر" [٢] ، بينما غض هؤلاء الطرف عنها كما لو كانوا أجانب عن مصر لا يمتون إليها ولا إلى أهلها بصلة ، وقد ماتت فيهم المشاعر الإنسانية وذهبت منهم النخوة والرجولة .

خامسا : التنكيل بالشعب :

وكما نكل الغزاة المحتلون بقادة الأمة الذين هم أهل الحل والعقد فيها ، فقد نكلوا بالشعب نفسه أشد تنكيل ، فارتكبوا فى حقه الفظائع ، إن تعذيبا وسجنا ، وإن قتلا بوحشية لا مثيل لها [٣] ، وما كان يمر يوم إلا ويشاهد أبناء مصر هذه المناظر البشعة حتى صار ذلك عندهم أمرا مألوفا .

ففى رسالة بعث بها السفاح "نابليون" إلى الجنرال "زايونشك" قومندان المنوفية قال له فيها : " لا بد أن تكون جاءتك تعليماتى لتنظيم مديريتكم (المنوفية) ، يجب أن تعاملوا الترك بمنتهى القسوة ، وإنى هنا أقتل كل يوم ثلاثة وآمر بأن يطاف برؤوسهم فى شوارع القاهرة ، وهذه هى الطريقة الوحيدة لإخضاع هؤلاء الناس ، وعليكم أن توجهوا غايتكم لتجريد البلاد قاطبة من السلاح" .

---

(١) راجع تفصيلات الرد على هؤلاء فى كتاب : ودخلت الخيل الأزهر تحت عنوان : "المحاكمة" ص٣٥١-٣٥٩ .

(٢) انظر ص٣٨١-٣٨٢ .

(٣) راجع تفاصيل التنكيل فى كتاب تاريخ الحركة القومية ١/٢٦٥-٢٦٧ . دار المعارف . السادسة . بدون .

وظاهر أن نابليون يقصد من عبارة "الترك" الأهالى ولا يمكن أن يقصد الأتــراك العثمانيين ، لأنه فى تاريخ هذه الرسالة كان يتودد إليهم كثيرا ويتظــاهر بمحبتــه لسلطان تركيا ، وكلمة ترك كثيرا ما يستعملها الكتاب الفرنسيون للتعبــير عــن الأهالى المصريين ، وهذا مفهوم من رسالة أخرى لنــابليون إلى الجــنرال "مينــو" قومندان رشيد يقول فيها : " إن الترك لا يمكن إخضاعهم إلا بالقسوة ، وفى كــل يوم آمر بقتل خمسة أو ستة فى القاهرة ، لقد كنــا نتفادى التعرض لــهم حــتى نزيل عن سمعتنا وصمة الإرهاب ، تلك التهمة التى كانت تسبقنا إلى أذهان الناس ، أما الآن فيجب علينا أن نستعمل الوسائل التى تؤدى إلى إخضاع هؤلاء القــوم ، وإخضاعهم معناه تخويفهم ."[١]

وأرسل حملة انتقامية إلى عرب القليوبية . فحرقت خيامهم وبيوتهم . وذبحــت رجالهم ذبحا . وقتلت نساءهم وأولادهم . ثم أمر نابليون بأن تحمل رءوس قتلاهــم إلى القاهرة . فحمل منها مائتان ، وضعت فى "أكياس" ونقلت على ظهور الحمــير. ثم أفرغت فى شوارع القاهرة ، أمام أهلها ، نكاية بهم وتخويفا . وليروا بعيونــهم انتقام نابليون فيخشعوا ، ويخضعوا ، ويذلوا [٢].

وقد اعترف الجنود والقواد الفرنسيون الذين اشتركوا فى الحملة فى مذكراتــهم ومن خلال رسائلهم التى تبادلوها فيما بينهم ، أو بينهم وبين ذويــهم بالفظــائع التى ارتكبوها فى حق الشعب المسلم .

يقول الجاويش "فرانسوا" : " إن قرية رفضت إمــداد الفرنســيين بالبضــائع التى طلبوها ، فضرب أهلها بحد السيف ، وأحرقت بالنار ، وذبح وأحــوق (٩٠٠)

---

[١] تاريخ الحركة القومية ٢٦٧/١ ، بونابرت فى مصر .هيرولد ص١٥٣ .

[٢] مصر فى القرن الثامن عشر ص٥٩-٦٠ .

رجل وامرأة وطفل ، ليكونوا عبرة لشعب همجى نصف متوحش (!!)""[١] .

هكذا ينظر إلينا رجال التنوير "شعب همجى نصف متوحش" !! ومس ثم يجب التنكيل بنا حين ندافع عن كرامتنا وديارنا ؛ لأننا تجاوزنا الحد فى وجه حملة الطهارة والعفة والرحمة !!! .

وكتب الجنرال "برتييه" إلى الجنرال "دوجا" قومندان مديرية المنصورة يخبره بحوادث ثورة القاهرة الأولى ، فكان مما قاله : " لقد نكلنا بالثائرين فى مذبحة رهيبة فسادت السكينة مساء أمس ، وقد قتلنا منهم ألفين أو ثلاثة آلاف ." . وأمر نابليون الجنرال "برتييه" بتاريخ (٢٣) أكتوبر من عام الثورة (١٧٩٨م) أن يصدر تعليماته إلى قومندان المدينة " بقطع رؤوس جميع المسحونين الذين أخذوا ومعهم أسلحة ، وعليكم إرسال الجثث فى هذه الليلة إلى شاطئ النيل فيما بين بولاق ومصر القديمة وإغراقها فى النهر ." .

كما أرسل نابليون رسالة إلى الجنرال "رينييه" قومندان الشرقية يقول فيها : " عادت السكينة إلى القاهرة ، وفقد الثائرون نحو ألفى قتيل ، وفى كل ليلة تقطع رؤوس نحو ثلاثين من الرجال وكثير من زعماء الأهالى ، وأظن أن هذا سيكون درسا قاسيا لهم ." [٢] .

و لم تأخذهم رحمة حتى بالنساء حيث لم يفرقوا فى تنكيلهم بين رجل وامرأة فقتلوا كثيرا منهم ، وهذا من أفظع ما سمع فى التنكيل وسفك الدماء آنذاك . قال المسيو "بوريين" سكرتير نابليون الخاص فى مذكراته :" سيق المسجونون إلى القلعة وكنت أتولى فى مساء كل يوم كتابة الأوامر القاضية بإعدام اثنى عشر سجينا

---

[١] بونابرت فى مصر . هيرولد ص١٠٥ .

[٢] تاريخ الحركة القومية ٢٨٣/١ .

كل ليلة ، وكانت جثث القتلى توضع فى زكائب وتغرق فى النيل ، واستمر ذلـك ليالى عديدة ، وكان كثير من النساء ممن نفذ فيهم أحكام الإعدام الليلية ."[1] .

وهكذا نرى أن الدور "التحريرى" الذى ينسبه مؤرخو المدرسة الاستعمارية إلى جيش الاحتلال الفرنسى بالنسبة للمرأة المصرية ، لم يكن يشمل كفاحها مـن أجل التحرر الوطنى ولا حتى من أجل تخفيف الضرائب . بـل هـو لا يتعـدى خصـرها ، وإلا لرحب الحكم الثورى "بانطلاق" المرأة من "عقالـها" واشتراكها فى الثـورة .

وإذا فهمنا دوافع جيش الاحتلال والسلطة الحاكمة فى إعدام النساء الثـائرات .. فأى عذر وأى منطق يخفى عار من يتصدون اليوم لتزوير تـاريخ هـذا الشـعب فيجعلون من مظاهرة تطالب بفتح الحمامات ، أو الخروج مع العسكر الفرنسـيين فى ثياب خليعة ، وتـهتك خلقى ، بداية حركة تحرير المرأة ! ويغفلون عن عمـد ، اشتراك المرأة المصرية فى أعمال المقاومة فى الريف المصرى ، واشتراكها فى قيـادة الثورة بالقاهرة ، على نحو دفعت معه حياتـها ثمنـا لـهذا الاشـتراك . فأعـدمت قيادة الثائرات ، بـحد السناكى فى القلعة ، أو أغرقن فى النيل ! .

أين يمكن أن يبحث المؤرخ الشريف عن قيادة الحركة النسائية .. وطلائع تحريـر المرأة .. فى سجن القلعة بين النساء الثائرات ينتظرن الإعـدام بسـناكى جيـش الاحتلال .. دون أن يسجل تاريخ الحملة الفرنسـية حادثـة انـهيار واحـدة للمجاهدات الباسلات .. أم يبحث عن هذه القيادة وهذه الطلائع فى خمامير أشـباه "برطلمين" ، وفى فراش جنود الاحتلال يقودهن أمثال "يعقوب" ؟! [2] وسـيأتى مزيد بيان لـهذا الموضوع بعد قليل .

---

[1] المرجع السابق ١/٢٨٤ .

[2] ودخلت الخيل الأزهر ص٢٢٥-٢٢٦ .

وكما صنع نابليون فى ثورة القاهرة الأولى صنع خلفه كليبر بالأهالى العـــزل فى ثورة القاهرة الثانية ، فقد أسرف هو وجنوده فى ارتكاب الفظائع لإخماد الثـــورة ، ولجئوا إلى الطريقة الوحشية التى اتبعوها ، فى كثير من المواطن ، وهى إضرام النـــار فى الأحياء الآهلة بالسكان وإرسالـــها على المدينة وأهلـــها موتا أحمـــر — كمـــا يذكر الرافعى — فأحدثت الحرائق تخريبا فظيعا فى القـــاهرة ، واحـــترقت أحيـــاء برمتها، وتـــهدمت بيوت عامرة ، ودفنت تحت أنقاضها عائلات بأكملها[١] .

لقد نجح الجاويش "فرانسوا" فى التعرف على حقائق الحياة فى مصر ، من صيدلى إيطالى كان يقيم بـــها ، قال له فى حديث ودى صريح :" إن الجميع خـــائفون ، ولا يدور حديثهم إلا عن المتاعب والفقر المنتشر ، والسرقات والقتل ، فليس هنـــلك أمن : لا على الحياة ، ولا على الأملاك . إنـــهم يسفكون دم الإنسان كأنه ثـــور . ورجال البوليس فى جولاتـــهم بالليل والنهار يحاكمون ويحكمـــون ، وينفـــذون أحكامهم فورا دون استئناف . وهم يسيرون مصطحبين الجلادين ، وما إن يصـــدر الأمر حتى يسقط رأس شيطان مسكين . أما الموقف فى أمر النساء فسيئ جدا ."[٢]

وما فعلوه بأبناء مصر قيادة وشعبا ، فعلوه بأبناء الشام كذلك مما يدل علـــى أن التنكيل بالمسلمين كان غرضا للغزاة وإن لم يقاوموهم .

فعندما جرد نابليون حملة من مصر إلى الشام ، واستسلمت له حاميـــة "يافـــا" البالغ عددها ثلاثة آلاف جندى ، وأعطاهم الأمان على أنفسهم ، قتلهم جميعا بـــلا هـــوادة [٣].

---

(١) تاريخ الحركة القومية ١٧٣/٢ .

(٢) بونابرت فى مصر ص١٦٩ .

(٣) تاريخ الحركة القومية ٣٧/٢ ، وانظر تاريخ الدولة العلية ص١٨٢ . موسوعة تاريخ مصر ، أحمد حســين ٨٩٥/٣ . دار الشعب ١٣٩٣هـــ/١٩٧٣م ، التاريخ الإسلامى . محمود شاكر ٤٧٦/٨ المكتب {يتبع}

وقد تأثر بعض الجنود لهذا التنكيل الوحشي بالأبرياء فكتب إلى أمه يخبرها بالرسالة التنويرية لجيش الاحتلال (!!) يقول لها : " إن قيام الجنود الحانقين ، بعد اقتحام مدينة ، والاستيلاء عليها عنوة ، بأعمال السلب والنهب والحرق والتقتيل كيفما اتفق ، أمر تقتضيه قوانين الحرب . والإنسانية تسدل قناعا على هذه الفظائع . ولكن صدور الأمر بعد انقضاء يومين أو ثلاثة على الهجوم ، وبعد أن تهدأ سورة الغضب ، فى وحشية هادئة ، بقتل (٣٠٠٠) رجل استسلموا لنا بسلامة نية ! تلك جريمة بشعة ستشجبها الأجيال القادمة ما فى ذلك ريب ... إن نحو (٣٠٠٠) رجل ألقوا سلاحهم ، فسيقوا على الفور إلى معسكرنا وفصل عنهم بأمر القائد الأعلى المصريون والمغاربة والأتراك . وفى صباح اليوم التالى أخذ المغاربة جميعهم إلى شاطئ البحر وبدأت كتيبتان فى رميهم بالرصاص . وكان أملهم الوحيد فى النجاة هو أن يلقوا بأنفسهم فى البحر ، فلم يترددوا ، وحاولوا كلهم الهرب سباحة ، فضربوا بالرصاص على مهل ، ولم تمض لحظة حتى اصطبغ ماء البحر بدمائهم . وانتشرت جثثهم على سطحه . وأسعد الحظ نفرا قليلا فوصلوا إلى بعض الصخور ولكن الأوامر صدرت للجنود باقتفاء أثرهم فى قوارب والإجهاز عليهم . أما وقد تم إعدام هؤلاء الرجال فقد رجونا صادقين ألا تتكرر هذه الجريمة وأن يعفى الأسرى الباقون من القتل .. ولكن سرعان ما خاب رجاؤنا حين اقتيد (١٢٠٠) مدفعى تركى فى اليوم التالى ليعدموا ، وكانوا قد جوعوا يومين أمام خيمة الجنرال بونابرت . وصدرت التعليمات المشددة للجنود بألا يسرفوا فى الذخيرة ، فبلغت بهم الوحشية أن أعملوا فيهم الطعن بالسنكى .. وقد وجدنا بين الضحايا أطفالا كثيرين تشبثوا – وهم يموتون – بآبائهم . وسيعلم هذا المثال أعداءنا أنهم لا يستطيعون الركون إلى صدق نية الفرنسيين ، وسيقع

{تابع} الإسلامى . الثانية ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

دم هؤلاء الآلاف الثلاثة الضحايا على رؤوسنا إن عاجلا أو آجلا "[1] .

الحق أن هيرولد اهتز ضميره أمام هذه المذبحة الوحشية وهاله — كما هال هـذا الجندى — ما فعله الجيش بأمر نابليون بالنساء والأطفال والشيوخ والأسرى المسالمين فى هذه المدينة الآمنة الوديعة !! [2] .

سادسا : استنزاف خيرات البلاد بالضرائب الباهظة وغيرها :

نظر الفرنسيون إلى مصر على أنها البقرة الحلوب التى لا يتوقف درها ، فكان من أغراض الحملة التى جردوها إليها استتراف خيراتها بكل الوسائل وإثقال كاهل الشعب بالضرائب الباهظة التى فرضوها عليه ، بما لم يكن معهودا من المماليك الذين ادعى نابليون أنه جاء يخلص المصريين من استغلالهم .

إن الرافعى الذى تحامل على المماليك وصب عليهم جام غضبه ، واعتبرهم غرباء على مصر حتى يؤكد الحركة الوطنية المفتعلة من الشعب ضدهم ! ، إنه مع ذلك وصف حالة مصر الاقتصادية والزراعية والصناعية تحت حكم نابليون وخليفتيه فرثى لها .

يقول : " يتبين من كل ما تقدم أن حالة مصر الاقتصادية والمالية قد ساءت على عهد الحملة الفرنسية ، وتقهقرت الزراعة ، وكسدت الصناعة ، وبارت التجارة ، وبالرغم من زيادة الضرائب والإتاوات والمصادرات فقد نقص دخل الحكومة عما كان قبل الحملة ، وعانت البلاد من كل ذلك أشد ما يمكن تصوره من الضيق والفاقة ، وأخذ الضنك يشتد بالناس يوما بعد يوم . وابتدع الفرنسيون

---

(١) بونابرت فى مصر ص٢٩١-٢٩٢ .

(٢) انظر المصدر السابق ص٢٨٨-٢٩١ .

تاوات وغرامات جديدة فى عهد كليبر ومينو ." (١) .

ويقول فى موضع آخر مبينا مدى الظلم والاضطهاد الذى عانى منه الشعب على يد كليبر خاصة بعد ثورة القاهرة الثانية : " وقد أسرف الفرنسيون فى إرهاق سكان القاهرة وإذلالهم ، واعتقلوا الكثيرين منهم لإكراههم على دفع نصيبهم فى الغرامة ، وفتشوا جميع المنازل بحجة البحث عن السلاح ، وتفننوا فى ضروب القهر والنكال ، واشتد الضيق بالناس مما لاقوه من المصائب والأهوال ، فخربت بيوت عامرة . وخرج كثير من الناس عن أموالهم وباعوا متاعهم . ومات كثير منهم فى السجون . وهاجر من استطاع الهجرة فرارا من الظلم والاضطهاد ." (٢) .

وأشار إلى وصف الجبرتى لهذه الحلقة من حلقات المآسى المالية التى أنزلها الفرنسيون بالمصريين والتى يقول الجبرتى عنها : " وبثوا الأعوان بطلب الناس وحبسهم وضربهم فدهى الناس بهذه النازلة التى لم يصابوا بمثلها ولا ما يقاربها .

ومضى عيد النحر و لم يلتفت إليه أحد ، بل و لم يشعروا به ، ونزل بهم من البلاء والذل ما لا يوصف ، فإن أحد الناس غنيا كان أو فقيرا لا بد وأن يكون من ذوى الصنائع أو الحرف فيلزمه دفع ما وزع عليه فى حرفته أو فى حرفتيه وأجرة داره أيضا سنة كاملة . فكان يأتى على الشخص غرامتان أو ثلاثة ونحو ذلك . وفرغت الدراهم من عند الناس واحتاج كل إلى القرض فلم يجد الدائن من يدينه لشغل كل فرد بشأنه ومصيبته . فلزمهم بيع المتاع فلم يوجد من يشترى . وإذا أعطوهم ذلك لا يقبلونه . فضاق خناق الناس وتمنوا الموت فلم يجدوه ، ثم وقع

(١) تاريخ الحركة القومية ١٢٤/٢ . وانظر تباشير النهضة فى العالم الإسلامى ص٤٩-٥٠ .
(٢) المرجع السابق ١٧٨/٢ .

الترجى فى قبول المصاغات والفضيات ، فأحضر الناس ما عندهم ، فيقوموه بأبخس الأثمان ، وأما أثاثات البيوت من فرش ونحاس وملبوس فلا يوجد من يأخذه وأمروا بجمع البغال ، ومنعوا المسلمين من ركوبها مطلقا سوى خمسة أنفار من المسلمين وهم : الشرقاوى والمهدى والفيومى والأمير وابن محرم والنصارى المترجمين وخلافهم لا حرج عليهم . وفى كل وقت وحين يشتد الطلب وتنبث المعينون (هكذا) والعسكر فى طلب الناس ، وهجم الدور ، وجرجرة الناس حتى النساء من أكابر وأصاغر وبهدلتهم وحبسهم وضربهم ، والذى لم يجدوه لكونه فر وهرب يقبضون على قريبه أو حريمه أو ينهبون داره . فإن لم يجدوا شيئا ردوا غرامته على أبناء جنسه وأهل حرفته " .

ثم ذكر انتهاز النصارى الفرصة وتطاولهم على المسلمين بالسب والضرب والتقول على الإسلام .. وخروج الناس هروبا مما أصابهم إلى القرى والأرياف لكنهم كانوا يتحولون عن مصيبة ليواجهوا بمصيبة ربما كانت أشد . فقال : " ثم إن أكثر الفارين رجع إلى مصر لضيق القرى وعدم ما يتعيشون به فيها ، وانزعاج الريف بقطاع الطريق والعرب والمناسر بالليل والنهار ، والقتل فيما بينهم ، وتعدى القوى على الضعيف ، واستمرت الطرق مخفرة والأسواق معفرة والحوانيت مقفولة والعقول مخبولة والنفوس مطبوقة والغرامات نازلة والأرزاق عاطلة والمطالب عظيمة والمصائب عميمة والعكوسات مقصودة والشفاعات مردودة ." .

ثم ختم كلامه بقوله : " وبالجملة فالأمر عظيم والخطب جسيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد." [1] .

---

(1) عجائب الآثار ٢/٣٤٩-٣٥٠ .

يعلق الرافعى على هذا الكلام الذى يقطر ألما وحزنا على ما أصاب البلاد والعباد على أيدى طغاة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين فيقول : " ويقيننا أنه قلما توجد فى تاريخ الثورات فجائع تشبهها أو تدانيها فى ويلاتها وخطوبها وأهوالها."[1] .

ترى ، ماذا يقول أدعياء التنوير فيما سجله الجبرتى الدقيق فى عباراته والرافعى الذى لا يشك أحد فى وطنيته – التى تجره أحيانا إلى حد التطرف – من هذه المظالم المفجعة ؟! .

سابعا : تربية جيل من بنى جلدتنا يقوم بالدور الفرنسى فى ديار الإسلام :

ومما سعى إليه رجال الحملة تحقيقا لرغبة الاستشراق اختيار طائفة من المسلمين بصفات معينة تناسب الدور الذى سيلعبونه لصالح الغرب فى ديارنا ، على أن يرسل هؤلاء إلى فرنسا لتعليمهم على طريقتهم وتعويدهم عوائدهم ، ويكونون طليعة الأجيال التى تأتى فيما بعد لتكون قلوبهم وعقولهم وتصرفاتهم غربية يدعون إليها بأعمالهم وأقوالهم ، وربما كانوا غربيين أكثر من الغربيين أنفسهم على النحو الذى نرى أمثالهم عليه الآن .

وقد شغل هذا الأمر نابليون كثيرا حتى إنه حين لم يستطع تنفيذه فى المدة التى مكثها بمصر ، كتب إلى "كليبر" من بعده ، وكان مما كتبه له :" ستظهر السفن الحربية الفرنسية بلا ريب فى هذا الشتاء أمام الإسكندرية أو البرلس أو دمياط ، يجب أن تبنى برجا فى البرلس ." .

ويقول :" اجتهد فى جمع (٥٠٠) أو (٦٠٠) شخصا من المماليك ، حتى متى لاحت السفن الفرنسية تقبض عليهم فى القاهرة أو الأرياف ، وتسفرهم إلى فرنسا.

---

[1] تاريخ الحركة القومية ٢/١٨٠ .

وإذا لم تجد عددا كافيا من المماليك فاستعض عنهم برهائن من العرب ومشـايخ البلدان ، فإذا ما وصل هؤلاء إلى فرنسا يحجزون مدة سنة أو سنتين ، يشاهدون فى أثنائها عظمة الأمة الفرنسية ، ويعتادون على تقاليدنا ولغتنا ، ولما يعودون إلى مصر يكون لنا منهم حزب يضم إليه غيرهم .". .

ويقول فى الرسالة نفسها : " كنت قد طلبت مرارا جوقة تمثيليـة ، وسـأهتم اهتماما خاصا بإرسالـها لك ، لأنـها ضرورية للجيش ، وللبدء فى تغيير تقـاليد البلاد ." !![1] .

إن هذا الذى غرض إليه نابليون من "كليبر" ، باختيار هذا العدد الكبير وإرساله إلى فرنسا وإبقائه هناك زمنا يكفى لإجراء عملية غسيل مخ كاملة يعـود بعدهـا المسلم متنكرا لبلاده ، قالبا "ظهر المجن" لدينه وحضارته ، وإذ لم ينجـح نـابليون فى تحقيق هذا الغرض إبان الحملة ، فقد نجح الفرنسيون فيه فيما بعد ابتداء من عهد محمد على ، وصار للقوم بل للغرب أتباع يدعون إليه بقـوة وإخـلاص الآن فى ديارنا، والواقع خير مثال على ذلك .

ثامنا : تفتيت الوحدة الوطنية :

ومما قصد إليه الغزاة الفرنسيون محاولتهم الخبيثة بتفتيت الوحـدة الوطنيـة فى المجتمع الآمن ، وتمزيق أواصر الأخوة الإسلامية بين المسلمين .

تمثل ذلك فى إثارة الفتنة الطائفية التى كانت نائمة حيـث مكنـوا للنصـارى

---

(١) رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا ص١٥٨-١٥٩ .

وقد استدرك العلامة محمود شاكر على الرافعى تدخله فى النص المترجم عن الفرنسية إلى العربية بشروح مـن عنده — كما ذكر هو — [انظر تاريخ الحركة القومية ٩٩/٢-١٠٣] الأمر الذى أدى إلى فساد المعنى وتغيير نص الترجمة الصحيح الذى أورده الأستاذ أحمد حافظ عوض فى كتابه : "فتح مصر الحديث" المؤلـف عـام ١٩٢٥م ، أى قبل أن يكتب الرافعى كتابه بأربعة أعوام . [انظر رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا ص١٥٩-١٦٣]

وميزوهم على المسلمين فى كل شئ ، وأعانوهم على التطاول عليهم ، بل وجندوا أقواما منهم فى صفوفهم لمحاربة أبناء الوطن الذين بروهم وأحسنوا إليهم ، وتركوهم آمنين على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم .. وقد استجاب لهم – كما سبق – العميل الخائن "يعقوب" ومجموعة من النصارى الذين شكل بهم كتيبة كان هو قائدها ، وأطلق الفرنسيون عليه لقب "الجنرال" لنذالته وخسته وتنكره للمعروف حتى كان هو وكتيبته بلاء على المسلمين .

وكذلك الخسيس "بارتلمى" الذى يقول عنه هيرولد : " ومن أبرز هؤلاء وألفتهم للنظر أيام الاحتلال الفرنسى مغامر رومى مسيحى يسمى بارتلمى أو بارتلميو عينه بونابرت "كتخدا مستحفظان" القاهرة (أى نائب المحافظة) وكان هذا الضابط الزاهى المظهر والمسلك يقود سرية قوامها مائة من الأروام والجزائريين والمغاربة والمتوحشين . وكان فارع القامة ، لا ينسى الناظر مظهره وهو يخرج على رأس أتباعه الأوغاد فى عمامة بيضاء ضخمة تظهر بشرته البرونزية ، وعيناه تلمعان، وعلى شفتيه ابتسامة يجمد لها الدم فى العروق ، وقد ارتدى ثوبه اليونانى الموشى بالقصب ، وحزاما أحمر ، وسراويل ضخمة ، ومعطفا تعلوه رمانتان مما يضعهما الكولونيل على كتفيه . وكان زوجته العملاقة الرهيبة تركب أحيانا إلى جواره . وكان بارتلمى يحب العراك ، لأنه يتيح له إظهار شجاعته والتباهى بثيابه ، ولكن أحب الأشياء إلى قلبه قطع الرقاب بالجملة . روى أنه إذا لم يجد من البدو المتمردين من يحمل رءوسهم إلى القاهرة تذكارا كان يعزى نفسه برءوس بعض الفلاحين العاثرى الحظ الذين يصادفهم فى عودته للمدينة . وقد قدم للجنرال ديبوى مرة زكيبة بأكملها مملوءة برءوس البدو بينما كان هو وضيوفه يتناولون طعام الغداء ، وقد آلمه أنه نغص عليهم طعامهم . "[1]

---

[1] بونابرت فى مصر ص١٥٦-١٥٧ .

لقد تسبب الفرنسيون بـــهذا الوضع فى إضرام نار بين الطرفين كانت كامنـــة . يقول الجبرتى : " وتطاولت النصارى من القبط ، والنصارى الشوام على المســلمين بالسب والضرب ، ونالوا منهم أغراضهم ، وأظهروا حقدهم ، و لم يقوا للصلـــح مكانا ، وصرحوا بانقضاء ملة المسلمين ، وأيام الموحدين ." (١).

وكثرت شكاوى المسلمين من هذه التصرفات الشائنة ، الأمر الـــذى اضطـــر نابليون إلى أن يطالبهم بالتخفيف منها . وكتب إلى كليبر يقول له :" مهما فعلـت بالمسيحيين فسيظلون دائما أصدقاءنا . فيجب أن تمنعـــــهم مـــن أن يشـــتطوا فى وقاحتهم ."(٢) .

ومن عجب أن يأتى بعد كل هذا تلميذ المدرسة الاستعمارية "لويس عـــوض" فيزور فى التاريخ ويقلب الحقائق مدعيا أن يعقوب العميل رائد القومية العربية !!

وقد فند الأستاذ محمد جلال كشك هذا الادعاء الكاذب ، ذاكرا حقيقة الخـائن يعقوب وجرائمه التى خالف بـــها موقف الكنيسة الرسمى ، وسرد نماذج على مـــا ذهب إليه من مصادرها الأصيلة ، فليراجعها من شاء فى كتابه القيـــم "ودخلـــت الخيل الأزهر" ، فى أكثر من موضع ولاسيما الفصل الثامن (٣) .

كما عمل الفرنسيون على توظيف اليهود فى خدمتهم ، وبالفعل تعاون معـــهم يهود مصر ، فكانوا مترجمين لـــهم ، واشتركوا فى حرق ونـــهب كتب العلـــم بالأزهر (٤).

وحين اتجه نابليون إلى "عكا" عام (١٧٩٩م) أصدر نـــداءه إلى اليـــهود أثنـــاء

(١) عجائب الآثار ٣٥٠/٢ .

(٢) بونابرت فى مصر ص١٥٧

(٣) ص٢٧٦-٢٩١ ، ص٣٢٩-٣٤١ ، ص٣٨٥-٤٢٠ .

(٤) انظر ودخلت الخيل الأزهر ص٢٢٢ .

حصارها ، طالبا منهم معاونته لقاء تمكينهم من أرض فلسطين ، وعلى هذا فالحملة الفرنسية تعد طليعة التمكين للصهاينة فى بلادنا .

وإتماما لتفتيت الوحدة الوطنية حتى يمكن الصيد فى الماء العكر سعى الغزاة المحتلون لإيجاد طائفة من أبناء الوطن همها النفاق على حساب الدين والوطن وطائفة من البلطجية الذين يسعون فى الأرض بالفساد . يقول الجبرتى : " وانضم إليهم (أى إلى الفرنسيين) الأسافل من القبط ، والأراذل من المنافقين ، وتقربوا إليهم بما يستميلون قلوبهم به ، وما يستجلبونه لهم من المنافع والمظالم وأجهدوا أنفسهم فى التشفى من بعضهم وما يوجب الحقد والتحاسد الكامن فى قلوبهم ، إلى غير ذلك مما يتعذر ضبطه ." [1]

لقد كان الجبرتى يقسم أهل مصر إلى الأمراء وأولاد البلد أو أولاد العرب . المشايخ ، ومساتير الناس ، والزعران ، والحرافيش ، والفلاحين ، والأعراب ولكن حكومة الثورة الفرنسية قسمتنا إلى : مسلمين ونصارى ويهود ! .

تاسعا : القضاء على المظاهر العمرانية الجميلة :

ومن المآسى التى تعرض المصريون لها قضاء رجال التنوير من الغزاة الفرنسيين على المظاهر العمرانية ، وتشويه معالم الطبيعة الجميلة التى حبى الله بها أرض الكنانة والتى قال عنها الصحابى الجليل عبد الله بن عمر رضى الله عنهما- كما سبق فى التمهيد : " ومن أراد أن يذكر الفردوس ، أو ينظر إلى مثلها فى الدنيا فلينظر إلى أرض مصر حين يخضر زرعها ، وتزهر ثمارها " .

أحال رجال الحملة هذا المنظر البديع الذى تمتعت به مصر على مدى تاريخها الطويل إلى خراب ، وقد سبق منذ قليل ما قاله الجبرتى عن التدمير والتخريب .

---

(١) عجائب الآثار ٤٩٧/٢ .

والنوازل الهائلة التى أصابت أهل مصر حين بدأ التأريخ لسنة الاحتلال الفرنسى (١٢١٣هـ) لها .

وظلت أيدى التخريب والتشويه تعمل فى مصر عملها حتى جلاء المحتلين الفرنسيين عنها .

ذكر الجبرتى حوادث سنة (١٢١٥هـ) وفى آخرها أفاض فى التخريب والتدمير والتشويه الذى أحدثه رجال "جنكيز خان وهولاكو" العصر الحديث فقال: " وانقضت هذه السنة وما حصل فيها . فمنها توالى الهدم والخراب ، وتغيير المعالم ، وتنويع المظالم . وعم الخراب خطة الحسينية خارج باب الفتوح والخروبى ، فهدموا تلك الأخطاط والجهات والحارات والدروب والحمامات والمساجد والمزارات والزوايا والتكايا ، وبركة جناق وما بها من الدور والقصور المزخرفة ، وجامع الجنبلاطية العظيم بباب النصر ، وما كان به من القباب العظام المعقودة من الحجر المنحوت ، المربعة الأركان ، الشبيهة بالأهرام ، والمنارة العظيمة ذات الهلالين ، واتصل هدم خارج باب النصر بخارج باب الفتوح وباب القوس إلى باب الحديد حتى بقى ذلك كله خرابا متصلا واحدا ."[1] .

وقال : " وهدموا أعالى المدرسة النظامية ومنارتها ، وكانت فى غاية من الحسن ، وجعلوها قلعة ، ونبشوا ما بها من القبور فوجدوا الموتى فى توابيت من الخشب ، فظنوا داخلها دراهم ، فكسروا بعضها ، فوجدوا بها عظام الموتى ، فأنزلوا تلك التوابيت وألقوها إلى خارج ." [2] .

إلى أن يقول : " ومنها توالى خراب بركة الفيل وخصوصا بيوت الأمراء التى

---

(١) عجائب الآثار ٢/٤٣٢ .

(٢) عجائب الآثار ٢/٤٣٢-٤٣٣ .

كانت بـها ، وأخذوا أخشابـها لعمارة القلاع ووقود النيران والبيع ، وكذلك ما كان بها من الرصاص والحديد والرخام ، وكانت هذه البركة من جملة محاسن مصر ، وفيها يقول أبو سعيد الأندلسى — وقد ذكر القاهرة - : وأعجبنى فى ظاهرها بركة الفيل ؛ لأنـها دائرة كالبدر ، والمناظر فوقها كالنجوم ، وعادة السلطان أن يركب فيها بالليل ، ويسرج أصحاب المناظر على قدر هممهم وقدرتهم ، فيكون بذلك لـها منظر عجيب ." [1] .

ثم شرع فى ذكر المساجد التى هدمها الغزاة وخربوها ، وهى تمثل بروعة بنائها وجمالها وجه مصر الحضارى المشرق ، وقد سبق بيان ذلك .

إلى أن قال عن صنيع القوم ببساتين مصر المزدانة بالنخيل والأشجار والأزهار كما لو كانت فردوس الدنيا — على نحو ما عبر عبد الله بن عمر رضى الله عنهما - : " ومنها قطعهم الأشجار والنخيل من جميع البساتين والجنائن الكائنة بمصر ، وببولاق ، ومصر القديمة ، والروضة ، وجهة قصر العينى ، وخارج الحسينية ، وبساتين بركة الرطلى ، وأرض الطبالة ، وبساتين الخليج ، بل وجميع القطر المصرى كالشرقية والغربية والمنوفية ورشيد ودمياط ، كل ذلك لاحتياجات عمل القلاع وتحصين الأسوار فى جميع الجهات ، وعمل العجل والعربات والمتاريس ووقود النار ، وكذلك المراكب والسفن وأخذ أخشابها أيضا ، مع شدة الاحتياج إليها ، وعدم إنشاء الناس سفنا جديدة لفقرهم ، وعدم الخشب والزفت والقار والحديد وباقى اللوازم ، حتى إنـهم حال حلولـهم الديار المصرية وسكنهم بالأزبكية كسروا جميع القنج والأغربة التى كانت موجودة تحت بيوت الأعيان بقصد التنزه ، وكذلك ما كان ببركة الفيل . وبسبب ذلك شحت البضائع وغلت الأسعار ، وتعطلت الأسباب ، وضاقت المعايش ،

---

[1] المصدر نفسه ٢/٤٣٤-٤٣٥ .

وتضاعفت أجر حمل التجارات فى السفن لقلتها ." (١) .

إلى آخر ما أفاض فيه الجبرتى من الهدم والتخريب الذى امتد إلى كل مكان بأرض مصر على أيدى القوم مما يدل دلالة واضحة لا ريب فيها على أنهم ما جاءوا إلا لمصالحهم واستتراف خيراتنا والقضاء على معالم حضارتنا ومظاهر الجمال فى مصر .

وقد تحرك ضمير بعض الفرنسيين الذين صاحبوا الحملة ، فحزنوا على الجمال الذى ضيع إخوانهم معالمه بمصر ، منهم المسيو "جالان" الذى يقول :" فى ١٥ فلوريال(٢) رجعت إلى القاهرة ، واضطررت أن أبحث لى عن مترل آوى إليه فى ميدان الأزبكية بدل المترل الذى كنت أسكنه والتهمته النيران ، وقد لاحظت أن الحصار(٣) أضر بالقاهرة أكثر مما كنت أتصور ، فقد عم الخراب أحياء بأكملها ، وتمثل لنا شبحه المخيف فى الأزبكية ، وأثرت فى نفسى صورته المفزعة ، فليس فى الإمكان أن نخطو خطوة إلا على كثبان من الخرائب والأتربة ، وكانت رائحة العفونة تنبعث من الرمم المدفونة تحت الردم ، وزاد هذا المنظر فظاعة أن الجنود — مدفوعين بفكرة النهب — كانوا ينبشون الجثث من تحت الأنقاض والخرائب ، فكلما أظهروا جثة زاد المنظر هولا وفظاعة ."(٤) .

ماذا يقول أدعياء التنوير فى بلادنا عما أحدثه الغزاة الفرنسيون بأرض الكنانة من وحشية وخراب وتدمير ؟!!

---

(١) المصدر نفسه ٢/٤٣٨ .

(٢) يوافق ٥ مايو سنة ١٨٠٠م .

(٣) حصار ثورة القاهرة الثانية .

(٤) تاريخ الحركة القومية ٢/١٧٤ .

عاشرا : السعي لنشر البدع والمنكرات :

ومما غرض إليه رجال حملة التنوير (!!) تجهيل الشعب المصرى لا تعليمه ؛ إلهاء له عن عظائم الأمور ، وذلك تم بالمساعدة على نشر البدع والمنكرات فى المجتمع وإحياء ما اندرس منها ، فالجبرتى – على سبيل المثال – فى أحداث سنة (١٢١٤هـ/١٧٩٩م) نجده يتحدث عن بدع الناس وخرافاتهم المنافية للدين والعلم حول قبر "السيد على البكرى" المدفون بجامع الشرايبى بالأزبكية ، وإقامة الموالد له هناك بترخيص من الفرنسيين زمن احتلالهم لمصر بعد أن درس كل ذلك . يقول : " فلما فتح أمر الموالد والجمعيات ، ورخص الفرنساوية ذلك للناس لما رأوا فيه من الخروج عن الشرائع ، واجتماع النساء ، واتباع الشهوات ، والتلاهى وفعل المحرمات ، أعيد هذا المولد مع جملة ما أعيد ." [1]

---

(1) ٢/٣٠٦ .

قال الجبرتى عن السيد على البكرى هذا : " أنه كان رجلا من البله ، وكان يمشى بالأسواق عريانا مكشوف الرأس والسوءتين غالبا ، وله أخ صاحب دهاء ومكر لا يلتئم به ، واستمر على ذلك مدة سنين ، ثم بدا لأخيه فيه أمر لما رأى من ميل الناس لأخيه واعتقادهم فيه كما هى عادة أهل مصر فى أمثاله ، فحجر عليه ومنعه من الخروج من البيت ، وألبسه ثيابا وأظهر للناس أنه أذن له بذلك ، وأنه تولى القطبانية ونحو ذلك فأقبلت الرجال والنساء على زيارته والتبرك به وسماع ألفاظه والإنصات إلى تخليطاته ، وتأويلها بما فى نفوسهم ، وطفق أخوه المذكور يرغبهم ويبث لهم فى كراماته ، وأنه يطلع على خطرات القلوب والمغيبات ، وينطق بما فى النفوس ، فانهمكوا على الترداد إليه وقلد بعضهم بعضا ، وأقبلوا عليه بالهدايا والنذور والإمدادات الواسعة من كل شئ وخصوصا من نساء الأمراء والأكابر ، وراج حال أخيه ، ونفقت سلعته ، وصادت شبكته ، وسمن الشيخ من كثرة الأكل والدسومة والفراغ والراحة حتى صار مثل البو العظيم ، فلم يزل على ذلك إلى أن مات فى سنة سبع بعد المائتين – أى عام ١٢٠٧هـ – كما تقدم ، فدفنوه بمعرفة أخيه فى قطعة حجر عليها من هذا المسجد من غير مبالاة ولا مانع ، وعمل عليه مقصورة ومقاما ، وواظب عنده بالمقرئين والمداحين وأرباب الأشاير والمنشدين بذكر كراماته وأوصافه فى قصائدهم ومدحهم ونحو ذلك . ويتواجدون ويتصارخون ويمرغون وجوههم على شباكه وأعتابه ، ويغرفون بأيديهم من الهواء المحيط به ، ويضعونه فى أعبابهم .. "
٢/٣٠٥-٣٠٦ .

كما تكلم "هيرولد" عن المولد النبوى ، وكيف انتهز نابليون الفرصة تلبيسا على المسلمين ، فأصدر أمره بالاحتفال به وكان قد توقف بسبب الحملة ، فكانت فرصة أيضا لسفلة الناس وغوغائهم يحيون من خلالها البدع والمنكرات والخرافات التى استراح المجتمع من شرورها . يقول هيرولد :"وكانت الاحتفالات بالمولد النبوى ستبدأ فى ليلة ٢٠ أغسطس . وقد أقيمت بأمر بونابرت بعد أن قرر الزعماء الدينيون العدول عن الاحتفالات العامة فى ذلك العام بسبب "تعطيل الأمور وتوقف الأحوال" وبلغ الضجيج والفوضى غايتهما مدى ثلاثة أيام وثلاث ليال ، وتحولت شوارع القاهرة إلى سوق ليلية ، بينما سار الألوف فى مواكب يحملون المشاعل و الشموع الكبيرة وينشدون "أغانى كلها نشاز ، ترافقها موسيقى أكثر نشازا" (على حد قول الميجر ديترو) "ويتصايحون ويزعقون ويحدثون ضجيجا شنيعا" وفى ٢٣ أغسطس بلغت هذه الأفراح ذروتها . يقول ديترو فى يوميته : "إن الميادين العامة حافلة بالمعارض والفرج الصغيرة — فترى فيها الدببة والقردة المدربة ، والمغنين والمغنيات ينشدون أدوارا يجاوبهم فيها آخرون ، والنسوة يغنين الأشعار ، والحواة يأمرون الثعابين فتختفى ، والأطفال يرقصون رقصات غاية فى الفجور ..وظهر الدراويش عند المساء : والشعب يجل هؤلاء المتعصبين الذين يطلقون شعورهم ويسيرون عراة تقريبا .. واجتمع الأتقياء فى حلقات يجلس فيها الرجال متلاصقين وقد عقد كل منهم ذراعه بذراع صاحبه . ثم بدأوا يهتزون فى حركة عنيفة أفرادا وجماعة ذات اليمين وذات اليسار ، ورافق حركتهم التلوى العنيف ، واستمرت إلى أن خارت قواهم" وقد دهش الفرنسيون من أمر الفقراء الدراويش . كان كثير منهم يجرون هنا وهناك عراة تماما "فى نشوة دائمة" كما ورد فى تقرير للجنة العلمية ، و لم يكن شئ من الأشياء محظورا عليهم . كانت النسوة يتبركن بالاتصال بهم ، وفى الأعياد يؤلفن نطاقا حول الولى ومن اختارها

لحمايتهما ."(١) .

وإضافة إلى ذلك جلب الفرنسيون – رحال التنوير !! – إلى ديارنا منكراتهم، وروجوا لها فى الصحف التى كتبتها مطبعة التنوير فى إعلانات مغرية للتردد عليها وشراء ما أرادوا نشره من محرمات فى المجتمع المسلم الملتزم بإسلامه كى يصبح مجتمعا متحللا من قيمه العقدية والأخلاقية النبيلة ، يقول هيرولد أيضا : " ولو أخذنا نموذجا – كيفما اتفق – من الإعلانات التى تنشرها صحيفة "بريد مصر" لتبينا كيف نقلت قطعة من باريس إلى القاهرة : "فى نهاية الشهر الفينيسى ، فى بيت المواطن الطيب فولمار ، يوجد مصنع للمشروبات والخمور بجميع أنواعها والطافيا والمشروبات الكحولية وغيرها من السلع الأوربية الطراز" .. "المواطنون فور ونازو وشركاؤهما ، يصنعون جميع أنواع المشروبات فى ميدان بركة الفيل قرب المستشفى رقم ٢ بأسعار معتدلة" .. "تبغ فرنسى من جميع الأنواع مصنوع فى بيت محمد كاشف (أى الذى استولوا عليه) بشارع بنى تـوار ، أمام المطعم الميلانى" .. "كوتشينة جميلة تباع فى مطبعة الجيش" .. "فور وجيشار ، وشركاؤهما ، صانعون وتجار تجزئة لجميع أنواع المشروبات والخمور المستوردة والنبيذ والقهوة والسكر والعطور .. الخ .. الخ .."(٢)

هذا ما رآه رجال حملة التنوير لنا نحن المسلمين المصريين !! مما أدى إلى نفور الناس منهم وثورتهم عليهم (٣) .

فهل فى هذا الخروج الذى عدد الجبرتى وغيره صورا منه النهضة التنويرية الحضارية التى أرادها لنا تلاميذ المدرسة الاستعمارية كما رآها أسلافهم

---

(١) بونابرت فى مصر ص١٦٣ .

(٢) بونابرت فى مصر ص١٧٢ .

(٣) المرجع السابق ص٢٠٤ .

من قبل؟!! .

حادى عشر : نشر السفور والخلاعة والمجون (ممزلة حركة تحرير المرأة) :

كان نشر الأفكار والتقاليد والعادات الغربية الفرنسية من السفور والميوعة والتخنث والفجور بصورة علنية فى المجتمع المصرى الملتزم بإسلامه غرضا من أغراض رجال الحملة الفرنسية ، بدءا بنابليون ومرورا بكليبر وانتهاء بمينو . حتى إن كليبر كرر على نابليون حين سافر إلى فرنسا أن يرسل له طائفة من "الممثلين" الذين لهم دور كبير فى نشر الخلاعة بين المصريين ، فكان مما رد به نابليون عليه كما سبق : " كنت قد طلبت مرارا جوقة تمثيلية ، وسأهتم اهتماما خاصا بإرسالها لك ، لأنها ضرورية للجيش ، وللبدء فى تغيير تقاليد البلاد ." .

فهذه العبارة الأخيرة تعطينا كيف أن القوم كانوا حريصين على نشر الرذائل الخلقية السلوكية السائدة لديهم فى مجتمعنا تمييعا لقيمنا الثابتة التى نعمنا بها قرونا ، وكأنهم ما جاءوا إلا لهذا . وقد تم لهم بعض ما أرادوا .

تكلم الجبرتى عن أحداث سنة (١٢١٣هـ) التى دنس الغزاة الفرنسيون فيها بأقدامهم أرض الكنانة فقال : " منها أنهم أحدثوا بغيط النوبى المجاور للأزبكية أبنية على هيئة مخصوصة منتزهة يجتمع بها النساء والرجال للهو والخلاعة فى أوقات مخصوصة ، وجعلوا على كل من يدخل إليه قدرا مخصوصا ، أو يكون مأذونا وبيده ورقة ."[١] .

وهذه هى بيوت الدعارة التى جاءت ثورة الإخاء والحرية والمساواة لزرعها داخل ديارنا ، فهى رائدة فى هذا الميدان الخبيث .

كما ذكر فى أحداث نفس السنة أن امرأة راقصة من "الرميلة" كانت تأتى

---

[١] عجائب الآثار ٢٣١/٢ .

الفرنسيين ، وترقص لهم فى القهوة التى يخطهم ليلا ونهارا ، وتبيت معهم في البيت ، ويصبحون على حالهم .. وكان مصيرها الشنق على أيدى المصريين حين علموا أمرها [١] .

وهذه القهوة بالبيت تعد أول كباريه ينشأ فى مصر على أيدى رجال التنوير وتحرير المرأة !! .

وعن أحداث عام (١٢١٥هـ/١٨٠٠م) وما كان فيه ، وهو العام الذى ظن الفرنسيون أن أقدامهم ثبتت فيه بمصر قال : " ومنها – أى من أحداث هذه السنة – تبرج النساء ، وخروج غالبهن عن الحشمة والحياء وهو أنه لما حضر الفرنسيس إلى مصر ومع البعض منهم نساؤهم ، كانوا يمشون فى الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه لابسات الفستانات والمناديل الحرير الملونة ، ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميرى والمزركشات المصبوغة ، ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقا عنيفا مع الضحك والقهقهة ، ومداعبة المكارية معهم ، وحرافيش العامة ، فمالت إليهم نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش فتداخلن معهم لخضوعهم للنساء وبذل الأموال لهن .. وكان ذلك التداخل أولا مع بعض احتشام وخشية عار ، ومبالغة فى إخفائه . فلما وقعت الفتنة الأخيرة بمصر [٢] ، وحاربت الفرنسيس بولاق ، وفتكوا فى أهلها ، وغنموا أموالها ، وأخذوا ما استحسنوه من النساء والبنات ، صرن مأسورات عندهم ، فزيوهن بزى نسائهم ، وأجروهن على طريقتهن فى كامل الأحوال ، فخلع أكثرهن نقاب الحياء بالكلية ، وتداخل مع أولئك المأسورات غيرهن من النساء الفواجر ."[٣].

---

(١) المصدر السابق ٢/٢٥٨ .

(٢) يقصد المقاومة الشعبية التى استمرت ٣٧ يوما عام ١٢١٣هـ .

(٣) عجائب الآثار ٢/٤٣٦ .

ثم تكلم عن تزوج بعض الفرنسيين من بنات الأعيان الذين اشتروا الدنيا بالآخرة – مكتفين بقبول الشهادتين فقط – وتعويد أولاء الزوجات المسلمات بعادات الفرنسيات من التبرج والسفور فى الشوارع وبحضرة الأجانب ، والسير مع الأزواج أو الضيوف للأمر والنهى دون حياء [١] .

إلى أن يقول : " ومنها – أى من نفس السنة المذكورة – أنه لما أوفى النيل أذرعه ودخل الماء إلى الخليج ، وجرت فيه السفن ، وقع عند ذلك من تبرج النساء واختلاطهن بالفرنسيس ومصاحبتهم لهن فى المراكب ، والرقص والغناء ، والشرب فى النهار والليل فى الفوانيس والشموع الموقدة ، وعليهن الملابس الفاخرة والحلى والجواهر المرصعة ، وصحبتهم آلات الطرب ، وملاحوا السفن يكثرون من الهزل والمجون ، ويتجاوبون برفع الصوت فى تحريك المقاديف بسخيف موضوعاتهم وكتائف مطبوعاتهم ، وخصوصا إذا دبت الحشيشة فى رؤوسهم ، وتحكمت فى عقولهم ، فيصرخون ويطبلون ويرقصون ويزمرون ، ويتجاوبون بمحاكاة ألفاظ الفرنساوية فى غنائهم وتقليد كلامهم شئ كثير ."[٢] .

أما "نقولا الترك" المؤرخ اللبنانى الذى عاصر الحملة هو الآخر وحضر إلى مصر لمتابعتها[٣] وسجل ما شاهد ، فقد قال :" وخرجت النساء خروجا شنيعا مع الفرنساوية ، وبقيت مدينة مصر (يعنى القاهرة) مثل باريس ، فى شرب الخمر والمسكرات ، والأشياء التى لا ترضى رب السماوات ."[٤] .

---

(١) المرجع السابق ٢/٤٣٦-٤٣٧ .

(٢) عجائب الآثار ٢/٤٣٧ .

(٣) كان قد أرسله سيده أمير الدروز إلى مصر ليلاحظ ما يجرى فيها . [بونابرت فى مصر ص٢٠٣] .

(٤) يوسف باشا القرمانلى والحملة الفرنسية على مصر . د . محمد عبد الكريم الوافى . ص٢١٩ المنشأة العامة للنشر والتوزيع . طرابلس . ليبيا . الأولى ١٣٩٣هـ/١٩٨٤م نقلا عن كتاب : "ذكر تملك الفرنساوية الديار المصرية والأقطار الشامية" ص٢٢٢ . باريس ١٨٣٩م .

وهذا الكلام من الجبرتى ونقولا يوضح بجلاء مدى التأثير الذى أحدثه الفرنسيون فى أفكار وسلوك من لا خلاق لهم ولا دين فى المجتمع المصرى ولا سيما مدينة القاهرة .

وكان من آثار ذلك ظهور ما يسمى بحركة تحرير المرأة التى أخذت أطوارا متعددة [١] ، وصلت فى الطور الأخير منها إلى الدعوة إلى تحلل المرأة من الثوابت التى تمثل أصولا عقدية وشرعية وأخلاقية لتخرج بها من عفتها وطهارتها وحيائها ودينها إلى حياة المرأة الغربية فى مناحى الحياة المختلفة ولو خالف ذلك بيئتها وعقيدتها وطبيعتها الأنثوية .

لقد وضعت الحملة الفرنسية النواة الأولى للدعوة لهذا التفسخ العام المضيع للبيت والأسرة وبالتالى المضيع للمجتمع كله والتى أصاب رشحها رفاعة الطهطاوى ، ثم تولى كبرها فيما بعد قاسم أمين وهدى شعراوى وصفية زغلول وهلم جرا [٢].

ومن عجب أن يعد تلميذ المدرسة الاستعمارية "لويس عوض" ومن لف لفه ، عام (١٨٠٠م) بداية تحرير المرأة المصرية [٣]، معتبرا أن النساء الخليعات المتبرجات

---

[١] راجع الفصل الثانى من كتاب المؤامرة على المرأة المسلمة تاريخ ووثائق . د. السيد أحمد فرج ص٣٣-٤٢ . دار الوفاء . الأولى ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

[٢] راجع التفاصيل فى كتاب قضية تحرير المرأة للأستاذ محمد قطب . مكتبة السنة بالقاهرة . الأولى ١٤١١هـ/١٩٩١م .

[٣] انظر ودخلت الخيل الأزهر ص ٣٦١ .

المدرسة الاستعمارية فى تفسيرها للتاريخ ، تجعل من الحملة الفرنسية ، بداية تاريخنا القومى .. بداية تحررنا من الاستعمار التركى وخروجنا من القرون الوسطى .

ولكن الحملة الفرنسية -باتفاق جميع المؤرخين- هى بداية غزو الإمبريالية الغربية الحديثة للشرق .. فكيف يمكن أن تصبح الإمبريالية داعية تحرر ، وأداة التقدم والانعتاق ؟

ولمعالجة هذا التناقض تقدم المدرسة الاستعمارية بثلاثة مزاعم : {يتبع}

اللائى كن يدرن على رحال جيش الاحتلال آنذاك ، طلائـــع حركـــة التحريـــر النســـائية ، وهذا منه — ومن على شاكلته - تـــهجم على الإسلام وتعاليمـــــه فيما يتعلق بشئون المرأة المسلمة ، وتزوير فى الحقيقة والتاريخ . وقد ناقش الأســـتاذ محمد جلال كشك هذا الإدعاء وفنده تفنيدا علميا جيدا فليرجع إليـــه مـــن أراد التفصيل فى الفصل السابع من الكتاب المذكور آنفا .[1]

وقد ذكر الأستاذ كشك فى الفصل المشار إليه أن "لويس عـــوض" استشـــهد بالمنحرفات على أنـــهن طلائع حركة التحرير ، أمثال "زينب" ابنة الشيخ البكرى، والمرأة "هوى" ، وإليك حقيقة كلتيهما .

أما الأولى ، فإن أباها قد كان محبا للدنيا ، يشرب الخمر ، ويمـــارس الشـــذوذ

{تابع}الأول : هو عزل الحملة الفرنسية عن المجرى العام لحركة التاريخ ، فهى ظاهرة منعزلة عـــن تـــاريخ الاستعمار الفرنسى ، وعن تاريخ العلاقات الغربية بالمشرق الإسلامى .

فالحملة الفرنسية —بموجب هذا الزعم— ظاهرة مرتبطة بالثورة الفرنسية ، وليس بالاستعمارية الفرنســـية ، فالثورة الفرنسية عبرت عن نفسها فى "نابليون" الذى راح يبذر مبادئها حيثما جرت خيوله .. ومن ثم فجيـــش الاحتلال الفرنسى .. ليس فى أوربا وحدها ، بل وأيضا فى الشرق ، لم يكن جيشا استعماريا تقليديا .. بـــل كان جيشا ثوريا ، كان جيش تحرير ، التعاون معه هو تعاون مع الثورة ، أو انتماء لها ، وهو تعاون مع اتجـــاه العصر ، وركوب لقاطرة التاريخ .. وبالتالى فرفض الوجود الفرنسى ، أو مقاومة هذا الوجود ، هو موقـــف رجعى ، ورفض للتحرر والتقدم وتشبث بالقرون الوسطى [ودخلت الخيل الأزهر ص٣١] .

الزعم الثانى : هو القول بأبدية تخلفنا ، واستحالة تخلصنا من هذا التخلف إلا بقبـــول الســـيطرة الغربيـــة والخضوع لها ، والتتلمذ على يد المحتلين بنفس راضية . وقد ناقشهم الأستاذ محمد جلال على معظم صفحـــات كتابه فى هذا الزعم ، ولأنه كما ذكر جعل موضوع كتابه لمناقشته .

الزعم الثالث : هو القول بأن مصر والوطن العربى كانت مستعمرة تركية ، ومن ثم فكل الذى حدث هـــو استبدال استعمار متقدم باستعمار متخلف .. فمن الناحية الوطنية لم يخسر الوطن شيئا ، ومن الناحية الحضارية استفاد الكثير !! [المرجع السابق ص٣٧] . وقد ناقشهم الأستاذ كشك أيضا فى هذا الزعم من الفصـــل الأول من كتابه المذكور [ص٤١–١٢١] .

[1] ودخلت الخيل الأزهر ص ٣٦١–٣٨١ .

الجنسى ، ويدع ابنته للقائد الفرنسى .. وعندمـــا رحـــل الفرنســيون وعـ العثمانيون مرة ثانية ، قدم ابنته إلى القتل لتنال جزاء ما ارتكبت ، وأما هو فنـ جزاء الخزى من الجمهور .

وأما الثانية ، فقد وقعت فى حمأة الرذيلة مع جيش الاحتلال ، وكان جزاؤهـ القتل على يد زوجها .. هاتان هما المرأتان اللتان اعتبـرهما لويس عـــوض ومـ شايعه رائدتى تحرير المرأة فى بداية القرن التاسع عشر على يد الفرنسيين المحتلـين أهذه هى قيادة تحرير المرأة ؟ .. السفور والفجور والخنى ؟ أين الجديد الذى قدمتـ الحملة فيما يتعلق بالنظرة إلى المرأة ؟

إن سلوك الحملة لم يعبر عن نظره للمرأة أكثر من كونـــها وســـيله للتفريـ الجنسى .. والضابط الفرنسى الوحيد الذى نظر إلى " الأنثى" المصرية كـــامرأة هو"مينو" الذى تزوجها وأنجب منها واصطحبها ، هى وابنها إلى فرنسا ، ولـــو الزوجة المصرية تعرضت هناك لمحنة شديدة ، عندما أصر قائد الحملة الفرنسية وابـ الثورة "العلمانية" على تنصير ابنه ، وعارضت هى ، واحتال عليها "مينو" بفتـــو مستشرق زعم لها : أن الأديان كلها واحدة ، وقرأ لابنة "الحمامى" الرشيدى ، آيـ من القرآن تثبت ذلك !.. والغريب أنه لم يقتنع لا هو ولا "مينو" بالآية ، وإلا لمـ أصر على تنصير ابنه .[1]

لقد فتح أدعياء التنوير من تلاميذ المدرسة الاستعمارية أعينهم على الســاقطاـ

---

(١) انظر ودخلت الخيل الأزهر ص ٣٦٨- ٣٧٢ ، بونابرت فى مصر ص٢١٩-٢٢٠ .

ذكر هيرولد أن إسلام مينو كان لأسباب تتصل بالغرام والسياسة أكثر مما تتصل بالدين . [انظر بونابرت ـ مصر ص٢٠٠ ، ص٣٨٣-٣٨٤] .. ولهذا لما خلف كليبر راح يغير ملامح البلاد كى يصوغها على صـــو فرنسا ، فسن عدة قوانين منها : تغيير قوانين المواريث الإسلامية ، وإلغاء القانون الجنائى الإسلامى ، وأنشـ محاكم جنائية تحت إدارة الفرنسيين . وعده المسلمون كاذبا ودجالا يريد اقتلاع نظم الإسلام . وقد ســـاء أحوالهم فى عهده ، وتطاول عليهم الفرنسيون والنصارى [بونابرت فى مصر ص٣٨٧] .

اللائى كن موجودات قبل الحملة الفرنسية وزاد فجورهن بمجىء الحملة ، وغضوا الطرف عن الشريفات اللائى كان لهن فى نهضة مصر ومقاومة الحملة دور مشكور ، من مثل السيدة نفيسة المرادية زوجة "على بك الكبير" ثم "مراد بك" من بعده ، فهى سيدة عفيفة ذات مآثر جمة ، ولها مواقفها العظيمة فى مواجهة جيش الحملة ، وليس فى فرنسا كلها امرأة تمتعت بما تمتعت به هذه المرأة .. ومن مثل زوجة "عثمان بك الطنبرجى" ، فقد كانت على شاكلة سابقتها فى المكانة والشرف والدفاع عن الوطن [١] . ومن مثل النساء المجاهدات اللائى كن يحملن فى الزكائب لإلقائهن فى النيل مع الرجال – كما سبق- ليلقين الله تعالى شهيدات فى سبيله سبحانه .

وكذلك أخواتهن فى الوجهين البحرى والقبلى اللائى كان لهن دور مشهود فى المقاومة حماية للعرض ودفاعا عن الدين والوطن . لقد اندهش القائد "بليار" الذى حاول احتلال جزيرة فيلة فى الجنوب ، فلم يستطع لبسالة الرجال والنساء فيها على السواء ، وكتب – كما ذكر هيرولد – فى يومياته : " علت صيحات الأهالى ، وراحت النسوة ينشدن أناشيد المعركة ويثرن الغبار ، ثم أعطين إشارة القتال " فأمر "بليار" ببناء أطواف واقتحام الجزيرة ودهم النساء .. يقول "دينون" : " وألقى الجميع – الرجال والنساء والأطفال – بأنفسهم فى النهر ، وكنت ترى النساء ، الثابتات على فطرتهن (...) ، يغرقن الأطفال الذين لا يستطعن حملهن معهن ، ويشوهن بناتهن حماية لهن من اغتصاب المنتصرين" [٢] .

بل إن القوم غضوا الطرف عما فعله نابليون ورجاله بالساقطات وهن موضع

---

[١] انظر ودخلت الخيل الأزهر ص ٣٧٣-٣٧٥ .

[٢] بونابرت فى مصر ص٢٦٨ .

رعاية تلاميذ المدرسة التنويرية !! .

فقد أصدر نابليون أمره بقتل (٤٠٠) امرأة من المومسات اللائى كن يترددن على ثكنات الجيش ، فقتلن وقطعت رءوسهن وخيطن فى غرائر ، وألقى بهن فى النيل [1] . فهل هذا هو تحرير المرأة ؟!!! .

ثاني عشر : إفساد البرلمان :

كان بمصر قبل الحملة الفرنسية ديوان "برلمان دائم" ، هو الديوان الذى يتشكل من "الوجاقلية" أو رؤساء الفرق ، ويكون مجلس "شورى الباشا المسمى بالديوان ، وإذا كان ثمة مقارنة يمكن أن تعقد بين الديوان العثمانى وغيره من المجالس النيابية التى عاصرته فإن الحقائق التاريخية فى صف الديوان العثمانى .

فهذا الديوان له سلطة كبيرة فى إدارة الحكومة ، لأن الباشا (الوالى) لا يستطيع أن يبرم أمرا إلا بموافقة أعضائه ، وإذا وقع خلاف بينه وبينهم يؤجل البت فيه إلى أن يرفع إلى الآستانة ، ولهم أن يطلبوا عزله ، فكانت سلطة ضباط الفرق بمثابة رقابة وإشراف على سلطة الوالى . وبهذا الوصف يصبح الديوان العثمانى ذ سلطة برلمانية حقيقية ، تعادل سلطة أرقى البرلمانات المعاصرة ، فهو له حق "الفيتو" على تشريعات الوالى ، بل وحق طلب عزل الحاكم .

وإذا أغرتنا لعبة الألفاظ فإننا نلاحظ تطور هذا "البرلمان" على النحو الذى تطورت إليه كل المجالس النيابية .

فقد أنشأ السلطان "سليمان القانونى" بدل مجلس شورى الباشا ديوانين : الأول الديوان الكبير ، والثانى الديوان الصغير ؛ فالديوان الكبير مؤلف من رؤساء الفرق (أغاواتها) و"دفترداريها" و"وروزنامجيتها" وأمير الحج ، وقاضى مصر

---

[1] المصدر السابق ص١٧٥ .

ورؤساء المشايخ ، والأشراف ، ورؤساء المذاهب الأربعة . ولـــهذا الديوان ســلطة البت فى شؤون الحكومة الرئيسية . وله نقض أوامر الوالى .

أما الديوان الصغير فكان ينعقد يوميا .. وكان الباشا يحضر جلسات الديوانـــين من وراء ستار ، وللتسلية يمكن أن نشبه ذلك بتحريم الدساتير على الملك حضـــور جلسات مجلس الوزراء أو البرلمان ! ، ولكنه كان ملزما بتنفيذ قرارات الديوانين .

أبـــهر هذا الديوان قنصل فرنسا المسيو "دى مايليه" الذى لم يكن قد رأى حـــتى ذلك الحين (١٦٩٢م) اجتماعا مماثلا له فى فرنسا ، فقال : " إن ديوان القــــاهرة أكثر أبـــهة من ديوان الآستانة .. وقد رأيت بقاعة الديـــوان نحـــو أربعـــة آلاف شخص مجتمعين ، وبعد تلاوة أمر السلطان ، وبيان الباشا ، صاح هذا الجمع بـــأن السلطان قد خدع . وأنه من الواجب رفع الحقيقة إليه .. وانتهى الاجتماع بحســـم الخلاف على طريقة رضيناها ورضوا عنها ." [١] .

هذا عن الديوان الذى عرفته مصر قبل مجىء الفرنسيين إليها ، فماذا حدث لـــه بعد غزوهم لنا واحتلالـــهم لديارنا ؟ .

لقد مزقوا شمل الأمة ، وقضوا على قوة المماليك[٢] التى عرفوا بـــــها قرونـــا وكانت مسخرة للدفاع عن الإسلام ، وقضوا على الديوان الذى أبـــهر القنصـــل الفرنسى قبل قدوم الحملة إلينا بأكثر من قرن ، وصارت الأمة بلا حكومة تديـــر شؤونـــها ، أو برلمان يحكم أمرها .

فشرع نابليون عقب احتلاله القاهرة فى تكوين ديوان "برلمان" هزيـــل يـــؤدى

---

(١) انظر ودخلت الخيل الأزهر ص٢٤١-٢٤٣ .

(٢) شهد بذلك هيرولد ، وضرب أمثلة عديدة على شجاعتهم واستبسالهم فى المعارك التى وقعت بينهم وبـــين الفرنسيين نقلا عن شهود عيان . انظر بونابرت فى مصر ص١٠٩ .

للغزاة المحتلين الدور الذى رسموه له ، عن طريق أقوام هم موضع ثقة الجماهير. يقول هيرولد : " أما دور ديوان القاهرة – ودواوين الأقاليم المنشأة على غواره – فهو أساسا إضفاء الصفة الشرعية على السياسات الفرنسية وإقرارها بفضل مكانة العلماء والفقهاء الذين تتألف منهم الدواوين . كتب بونابرت لكليبر يقول : إننا إذا كسبنا تأييد كبار شيوخ القاهرة كسبنا الرأى العام فى مصر كلها . فليس بين زعماء الأمة كلهم من هو أقل خطرا علينا من الشيوخ ، فهم جبناء ، عاجزون عن القتال ، يوحون – لجميع رجال الدين – بالتعصب دون أن يكونوا هم أنفسهم متعصبين "[1] .

وكان من وراء الجهاز العسكرى جهاز آخر، هو الاستشراق الذى لعب دوره الخطير فى تكوين هذا الديوان الكسيح ! .

يقول العلامة محمود شاكر : " وهذا "الديوان" أمر بإنشائه نابليون منذ أول يوم دخل فيه القاهرة (الثلاثاء ١٠صفر ١٢١٣هـ/٢٤يوليو ١٧٩٨م) ، وذكر فى أمر إنشائه أسماء مشايخ بأعيانهم يتكون منهم "الديوان" . وهذا الذكر المفاجئ وحده دليل على أن الأمر كان معدا إعدادا كاملا قبل أن تطأ قدمه أرض مصر ، وأن الأسماء قد اختيرت بعد تدبير محكم ودراسة قام بها "الاستشراق" وأعوانه منذ فكر فى شن الحملة على مصر . وقاعدة اختيارهم : "أن يكونوا من أعيان البلاد الذين امتازوا بمركزهم العلمى وكفايتهم ، وطريقة استقبالهم للفرنسيين" . ومعنى ذلك أنه يريد أن يودع سلطة الحكومة الظاهرة المموهة فى يد فئة ذات هيبة عند الناس ، وأن يكونوا جميعا ممن يمكن أن يستجيبوا بشكل ما استجابة تدين بالولاء لجيش الغازى ، ليروض بهم قوى المقاومة ويخدعها ويفت فى عضدها . وهذا شئ لا يقدم على مثله بهذه السرعة ، إلا بعد خبرة سابقة

---

[1] بونابرت فى مصر ص١٥٥-١٥٦ .

بأصحاب هذه الأسماء وبمواطن ضعفهم التي تقعد بهم عن المقاومة ، وتسول لهم أن يحسنوا "استقبال الفرنسيين" الذين انتهكوا حرمة ديارهم وأوطانهم . ولا سبيل إلى معرفة ذلك كله إلا عن طريق جهاز مدرب قد طال عهده باختبار الناس وتقصى أحوالهم من قريب . وهذا الجهاز هو "جهاز الاستشراق" الذى كان يعرف لغة أهل البلاد ، والذى كان يتجول فى الأرض المصرية من قبل ويلبس لأهلها كل زى ." [1] .

ولهذا كان المستشرقون الفرنسيون يشرفون بأمر نابليون ، وخليفتيه على الديوان ، ويديرون جلساته ، لا يتخلف عنه أحد منهم .

فقد أصدر نابليون أمره فى (١٨ يوليو ١٧٩٨م) بتعيين "الأدجودان جنرال بوفوازان" قوميسيرا لدى الديوان ، وعهد إليه حضور جلساته على الدوام ، وأن يرفع إليه عقب كل جلسة كل ما يدور فيها ، وكان نابليون حريصا على تتبع مداولات الديوان حتى فى أثناء تغيبه عن العاصمة ، فإنه لما ارتحل عن القاهرة لتعقب جيش "إبراهيم بك" ببلبيس أصدر أمره إلى الجنرال "ديزيه" بأن ينوب عنه فى شؤون القيادة ، وكلفه بأن يتلقى من "بوفوازان" تقارير يومية عن جلسات الديوان ، ولما أوفد نابليون "بوفوازان" فى مهمة لدى الجزار عين بدله المسيو "تاليان" قوميسيرا لدى الديوان (٣١أغسطس١٧٩٨م) . ويؤخذ من أمر نابليون القاضى بهذا التعيين أن مهمة القوميسير هى التجسس على الأعضاء ، فإن نابليون يقول فى أمره : " على الستويان (أى المسيو) تاليان أن يحضر جميع جلسات الديوان ، وأن يسعى فى معرفة أخلاق أعضائه ، ومبلغ الثقة التى يمكننا أن نوليهم إياها ، وعليه أن يبلغنى كل يوم بالشكاوى التى ترفع إلى الديوان ، والمسائل

---

[1] رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا ص١٥٠-١٥١ .

التى بحث فيها ، والطلبات التى يبديها ." (١) .

لقد أنشئ بواسطة الجهازين : العسكرى والفكرى الديوان الذى كل مهمته تحقيق مصالح المحتل الأجنبى ، من تبليغ أوامره إلى الشعب لتنفيذها وتحذيره من الثورة لنيل حريته واستقلاله ، وتحصيل الأموال بكل سبيل ، أما مصالح الأمة التى أنشئ البرلمان المملوكى العثمانى لأجلها فلا ! .

يقول الرافعى : " من الواجب أن نعرف أن الديوان العام لم تكن له سلطة قطعية فى الأمور التى عرضت عليه ، بل كان الغرض من انعقاده استشارته والوقوف على آراء أعضائه .

إن خطاب افتتاح الديوان مفهوم منه أن عمل الأعضاء مقصور على الإجابة عما يسألون عنه من النظم المراد وضعها ، ويكون لنابليون القول الفصل فيما "يليق صنعه" ، وعلى هذه القاعدة انعقد الديوان .

ومن جهة أخرى فقد كانت المسائل التى تعرض على الديوان تدرس فى الوقت نفسه فى لجنة ألفها نابليون برئاسته وبعضوية مدير مهمات الجيش ومدير الشؤون المالية وكبير المباشرين ، وأمر بأن تنعقد هذه اللجنة يوميا وتقرر القرارات النهائية فيما يتداول فيه الديوان . فقرارات الديوان كانت أشبه "برغبات" تعرض على اللجنة التى ألفها نابليون ، ولهذه اللجنة القول الفصل ."(٢) .

وصار على هذا المنوال فى شل مهمة الديوان وتحديد وظيفته خليفتاه كليبر ومينو .

وإن شئت مثالا واقعيا على ذلك ، فدونك المجلس الذى انعقد بالديوان فى شهر

---

(١) تاريخ الحركة القومية ١٠٣/١ .

(٢) تاريح الحركة القومية ١٠٩/١ .

ذى الحجة عام (١٢١٥هـ) أيام كليبر .

ذكر الجبرتى تهيؤ الأعضاء يوم الجمعة فى الشهر المذكور لحضور المجلس ، واستشرافهم للمناصب ، ثم مفاجأتهم فى الديوان بما لم يكونوا يتوقعونه من المقابلة السيئة التى عبرت عن الاستهانة بهم ، والتصرفات التى حدثت لهم ودللت على أنهم كانوا فى سجن أو معتقل و لم يكونوا فى برلمان ينالون فيه كامل حريتهم مع رجال الحرية والإخاء والمساواة ! .

وها هى فقرات مما سجله لنا هذا المؤرخ العظيم ، أنقلها بتمامها لأنها تظهر لنا حقيقة المهزلة البرلمانية التى أقامها المحتلون الفرنسيون ! .

" فلما كان فى صبحها يوم الجمعة ثامنه ، بكروا بالذهاب إلى بيت سارى عسكر ، ولبسوا أفخر ثيابهم وأحسن هيآتهم ، وطمع كل واحد منهم وظن أن سارى عسكر يقلده فى هذا اليوم أجل المناصب ، أو ربما حصل التغيير والتبديل فى أهل الديوان ، فيكون فى الديوان الخصوصى . فلما استقر بهم الجلوس فى الديوان الخارج أهملوا حصة طويلة لم يؤذن لهم و لم يخاطبهم أحد ، ثم فتح باب المجلس الداخل وطلبوا إلى الدخول فيه ، فدخلوا وجلسوا حصة مثل الأولى . ثم خرج إليهم سارى عسكر وصحبته الترجمان وجماعة من أعيانهم ، فوضع له كرسى فى وسط المجلس ، وجلس عليه ، ووقف الترجمان وأصحابه حواليه ، واصطف الوجاقلية والحكام من ناحية ، وأعيان النصارى والتجار من ناحية ، وعثمان بك الأشقر والبرديسى أيضا حاضران . وكلم سارى عسكر الترجمان كلاما طويلا بلغتهم حتى فرغ ، فالتفت الترجمان إلى الجماعة وشرح يفسر لهم مقالة سارى عسكر ، ويترجم عنها بالعربى ، والجماعة يسمعون . فكان ملخص ذلك القول أن سارى عسكر يطلب منكم عشرة آلاف ألف إلى آخر العبارة الآتية. وأما هذه العبارة فإنه قالها المهدى : فقط إننا لما حضرنا إلى

بلدكم هذه نظرنا أن أهل العلم هم أعقل الناس . والناس بهم يقتدون ولأمرهم يمتثلون ، ثم إنكم أظهرتم لنا المحبة والمودة وصدقنا ظاهر حالكم فاصطفيناكم وميزناكم على غيركم ، واخترناكم لتدبير الأمور وصلاح الجمهور ، فرتبنا لكم الديوان وغمرناكم بالإحسان وخفضنا لكم جناح الطاعة وجعلناكم مسموعين القول مقبولين الشفاعة ، وأوهمتونا أن الرعية لكم ينقادون ولأمركم ونهيكم يرجعون، فلما حضر العثملى فرحتم لقدومهم وقمتم لنصرتهم ، وثبت عند ذلك نفاقكم لنا . فقالوا له : نحن ما قمنا مع العثملى إلا عن أمركم لأنكم عرفتمونا أننا صرنا فى حكم العثملى من ثانى شهر رمضان ، وأن البلاد والأموال صارت له وخصوصا وهو سلطاننا القديم وسلطان المسلمين . وما شعرنا إلا بحدوث هذا الحادث بينكم وبينهم على حين غفلة ، ووجدنا أنفسنا فى وسطهم فلم يمكننا التخلف عنهم . فرد عليهم الترجمان ذلك الجواب ، ثم أجابهم بقوله : ولأى شئ لم تمنعوا الرعية عما فعلوه من قيامهم ومحاربتهم بنا ؟ . فقالوا لا يمكننا ذلك خصوصا وقد تقووا علينا بغيرنا ، وسمعتم ما فعلوه معنا : من ضربنا وبهدلتنا عندما أشرنا عليهم بالصلح وترك القتال . فقال لهم : وإذا كان الأمر كما ذكرتم ، ولا يخرج من يدكم تسكين الفتنة ولا غير ذلك فما فائدة رياستكم ، وإيش يكون نفعكم إلا الضرر لأنكم إذا حضر أخصامنا قمتم معهم وكنتم وإياهم علينا ، وإذا ذهبوا رجعتم إلينا معتذرين ، فكان جزاؤكم أن نفعل معكم كما فعلنا مع أهل بولاق من قتلكم عن آخركم وحرق بلدكم وسبى حريمكم وأولادكم ، ولكن حيث إننا أعطيناكم الأمان فلا ننقض أماننا ولا نقتلكم، وإنما نأخذ منكم الأموال ."[1] .

وحدد كليبر المبلغ المطلوب منهم ، وذكر أسماء أشخاص بعينهم من المشايخ

---

[1] عجائب الآثار ٣٤٤/٢-٣٤٦ .

تضعف عليـهم العقوبة فى تحصيل الأموال ، وطلب منهم –وهم أعضاء البرلمان!– (١٥) رهينة منهم حتى يوفوا بالمبلغ المطلوب تحصيله ، ثم تركهم ودخل من بـاب داخلى إلى حجرة مجاورة ، وأغلق الحرس الباب دونه .

" ووقف الحرس على الباب الآخر يمنعون من يخرج من الجالسـين ، فبـهت الجماعة وامتقعت وجوههم ، ونظروا إلى بعضهم البعض ، وتحيرت أفكـلوهم ، و لم يخرج عن هذا الأمر إلا البكرى والمهدى ، لكون البكرى حصل له ما حصـل فى صحائفهم ، والمهدى حرق بيته بمرأى منهم ، وكان قبل ذلك نقل جميع مـا فيـه بداره بالخرنفش ، و لم يترك به إلا بعض الحصر ، و لم يكن به غير بعض الخـدم ، وكان يستعمل المداهنة وينافق الطرفين بصناعته وعادته . و لم تـزل الجماعـة فى حيرتـهم وسكرتـهم ، وتمنى كل منهم أنه لم يكن شيئا مذكـورا ، و لم يزالـوا على ذلك الحال إلى قريب العصر حتى بال أكثرهم على ثيابه ، وبعضهم شرشـر ببوله من شباك المكان . وصاروا يدخلون على نصارى القبط ويقعون فى عرضهم ، فالذى انحشر فيهم و لم يكن معدودا من الرؤساء أخرجـوه بحجـة أو سـبب ، وبعضهم ترك مداسه وخرج حافيا وما صدق بخلاص نفسه ." [٢] .

" أى قلم فوتغرافى غير قلم "الجبرتى" يستطيع أن يمنحنا صورة معبرة مفحمـة لوضعية "نواب البلاد وممثلى الشعب" . وهم يبولون فى ثيابـهم .. والإيجابى منـهم "يشرشر ببوله من الشباك" ! ليس فيهم من يجرؤ على طلب السماح له بالتوجه إلى دورة مياه ، رغم أن الحضارة الغربية تمن علينا بأنـها هى التى علمتنا نظام المجارى!

غير أن المدرسة الاستعمارية فى محاولتها التدليـل علـى الـدور الحضـارى والتحريرى الذى لعبته الحملة الفرنسية تجد نفسها مندفعة فى تعداد "الأولات" الـتى

---

[٢] المصدر السابق ٣٤٦/٢-٣٤٧ .

أدخلها الفرنسيون فى بلادنا .. فهناك أول "برلمـــان" وأول "مجلــس وزراء" وأول "حكومة مسئولة" وأول "محاكمة عادلة" وأول "مطبعة" وأول "عزل صحـى" وأول "تحطيم للبوابات" .. وأول "فيلق من العملاء" ... وأول "مشروع للاســتقلال" .. أول "طلب للحماية الأجنبية" .. الخ .

وهذه المدرسة تصف هذا الديوان "المحصور" بأنه كان تدريبا للمصريين علـــى النظام البرلمانى ومسئولية الحكومة أمام النواب وتجربة للحكم الذاتى ... ولاشـــك أنـــها إن كانت قد فهمت — وهو ما لم يحدث لحسن حظ الديموقراطية — علـــى هذا النحو ، من النخبة المصرية ، فلا شك أنـــها قد تركت أثرا عكسيا ، ونفـــورا من هذه التجربة .. وكيف يصدق "التلاميذ" المصريون أن "الحكومة مســـئولة أمام البرلمان" الذى هم أعضاؤه وهم يرون أنفسهم — إن صدقوا أنـــهم نـــواب — لا يملكون حتى الحق الطبيعى الذى نالته سائر الكائنات الحية ، وهو حـــق إفـــراز المواد السامة المتجمعة فى الجسم ! .. وأى قاعة لدرس الليبرالية والديموقراطية وبعث القومية ، تلك التى تحولت إلى ما يشبه المراحيض العمومية ؟ !" (١) .

* * *

تلك كانت بعض أغراض الحملة التى تجرعت الأمة كؤوس مآسيها علـــى أيـــدى رجال الحرية والإخاء والمساواة ! ، والتى تظهر لنا حقيقة الحملة الفرنســـية علـــى عكس ما ادعى تلاميذ المدرسة الاستعمارية ، فهل هذا ما أثبته الكتاب الفرنســـيون فى أعمالهم ؟ .

---

(١) ودخلت الخيل الأزهر ص٢٣٧ .

وقد عالج الأستاذ محمد جلال كشك موضوع الديوان ، وفند ادعاءات "لويس عوض" وغيره مـــن تلاميـــذ المدرسة الاستعمارية فى ص٢٣٣-٢٦٩ ، ص٣٠٩-٣١٩ ، فليرجع إليه من شاء .

الحملة فى كتابات الفرنسيين

ظهرت فى كتابات الفرنسيين المعاصرين للحملة واللاحقين لـها الأغراض الـتى سبق ذكرها والتى أظهرت الحملة على وجهها الصحيح ، كما ظهر فيها حقدهـم الدفين على الإسلام والمسلمين وتحيزهم الواضح للغزاة من بنى ملتهم وجلدتـهم ، وإضفاء الطابع الأسطورى على الحملة ، مما كان لـهذا أثره على عقلية الفرنسيين المعاصرين من ناحية وعقلية المولعين بكل ما هو غـربى مـن تلاميـذ المدرسـة الاستعمارية فى ديارنا الإسلامية من ناحية ثانية .

ويحسن بنا فى هذه العجالة أن نعرض لطائفة من هؤلاء الكتاب الفرنسيين ، مـن واقع ما ذكرته لنا الدكتورة ليلى عنان أستاذ الحضارة الفرنسـية بكليـة الآداب جامعة القاهرة فى كتبها :"الحملة الفرنسية بين الأسطورة والحقيقة"[١] . و" الحملـة الفرنسية تنوير أم تزوير"[٢] ، و"والحملة الفرنسية فى محكمة التـاريخ"[٣] حيـث كشفت فيها القناع عن حقيقة الحملة الفرنسية ، وردت علـى مزاعـم تلاميـذ المدرسة الاستعمارية ، ومثلها لا يتهم فيما ذهبت إليه ، فهى – مـع تخصصـها وطول باعها فى هذا الميدان – تلميذة المدارس الفرنسية ، وأساتذتـها –كمـا صرحت– منذ نعومة أظفارها حتى حصولـها على الدكتوراة فرنسـيون[٤] ، إلا أنـها لم تنس عروبتها و لم تتخلَ عن هويتها الدينية والثقافية ، فلم تقتنع بما لُقنتـه فى المراحل الدراسية ، ولا بما قرأته عن الحملة فى الكتابات المشوشة ، فشمرت عـن ساعد الجد لقطع الشك باليقين ، واستجلاء الأمر بطريقة علميـة صحيحـة[٥] .

---

(١) إصدار دار الهلال . عدد (٥٠٠) صفر / أغسطس ١٩٩٢م .

(٢) وهو من إصدارات دار الهلال . عدد (٥٦٧) ١٩٩٨م .

(٣) وهو أيضاً من إصدارات دار الهلال . عدد (٥٧٤) . أكتوبر ١٩٩٨م .

(٤) الحملة الفرنسية تنوير أم تزوير ص١١ .

(٥) انظر المصدر السابق ص١١ .

وجعلت مصادرها فى المادة العلمية للكتب ، بل وما توصلت إليه من نتائج ما كتبه الفرنسيون أنفسهم من باب "وشهد شاهد من أهلها" [١] .

وخلصت فى الكتب إلى أن الكتاب الفرنسيين جعلوا من نابليون شخصية أسطورية قادرة على فعل الأعاجيب ، وحشوا كتبهم ومقالاتهم بالمبالغات عن الحملة الفرنسية التى كانت بلاء على مصر . وأن ما ذكر عن الحملة من كونها كانت تنويراً محض افتراء .

تقول : " فالدراسات التاريخية الحديثة قد دحضت الكثير مما كان المؤرخون يرددونه من قبل : لقد أصبح من المعترف به الآن مثلاً أن الحملة لم يكن لها ذلك التأثير الذى كانوا يتحدثون عنه ." [٢] .

وفى الكتب أيضاً عرضت للكتاب الفرنسيين (المعاصرين للحملة واللاحقين لها الذين كتبوا عن الحملة مظهرة أغراضها التى اضطروا للاعتراف بها ، وداحضة ما سودته أقلامهم من افتراءات.

وإليك نماذج لهؤلاء الفرنسيين وكتاباتهم،وتعليق الدكتورة ليلى على بعضها،مع ملاحظة الاقتصار على ما ورد فى كتاب "الحملة الفرنسية تنوير أم تزوير"لمناسبته مقصود الدراسة فى كتابنا وتضمنه معانى النماذج الواردة فى الكتابين الآخرين .

١ - "شاتو بريان" :

كاتب فرنسى عاصر الحملة ، ومر بمصر فمكث بها يومين إبان احتلالها.. ألف كتاب "المسار من باريس إلى أورشليم" .

تكلم فيه عن الحملة الفرنسية ، ولم ينس صليبيته الممتلئة حقداً على الإسلام وأتباعه ، ودعا بنى وطنه وملته إلى القيام بحرب صليبية أخرى غير التى قام بها

---

(١) المصدر نفسه ص١٣ ، ص١٨ .

(٢) الحملة الفرنسية تنوير أم تزوير ص٧ .

نابليون . وكان يؤكد أن أربعين ألفا من الجرابيع الروس فى استطاعتهم المرور على جثث الانكشارية ، والاستيلاء على القسطنطينية ، وقد تحاشى ذكر كلمة استانبول فى كتاباته [١] .

وطوال صفحات الكتاب نعت الإسلام بأنه : العبادة التى تعادى الحضارة بنظامها الأساسى ، المؤيد للجهل والطغيان والرق وإنه الدين — على حد زعمه الكاذب — الذى أحرق مكتبة الإسكندرية ويعتبر دعس الرجال ميزة [٢] .

وقال : " إن الطبيعة يحلو لها أن تذكرنا بأفكار الحضارة ، فى البلد الذى ولدت فيه هذه الحضارة حيث يحكم الآن الجهل والبربرية .. (يقصد الإسلام) [٣].

وقد ربط"شاتو"بين حملة لويس السابعة وحملة نابليون على مصر ، وأن الثانية انتصار للأولى .. يقول :" كنت فى الوقت نفسه أذكر أن حراب فرساننا وسناكى جنودنا ، كانت قد عكست أشعة هذه الشمس الساطعة مرتين ، مع الفارق طبعا لأن فرساننا الذين هزموا يوم المنصورة انتقم لهم جنودنا فى معركة الأهرامات ."[٤]

وذكر المؤلف أن نابليون نفسه شرح الهدف من حملته التى قام بها لاحتلال مصر وما جاورها ، وبين أن الهدف الرئيس من الحملة كان زعزعة القوة الإنجليزية فى أركان العالم الأربعة ، من أجل ثورة تغير وجه الشرق كله ، وتعطى للهند مصيرا آخر . وكان يقول :" إن مصر كان عليها أن تقوم بدور سان دومنج ومستعمراتها الأمريكية ، وتجمع بين حرية السود ورخاء

---

(١) الحملة الفرنسية تنوير أم تزوير . ص ١٦٣ .

(٢) المصدر المشار إليه ص ١٦٤ .. والدعس : الطعن والوطء بالرجل .

(٣) ص١٧٢ .

(٤) ص١٦٦ .

تجارتنا . الخ .. كانت هذه المستعمرة الجديدة ستهدم الإنجليز فى أمريكا والبحر المتوسط وحتى ضفاف نهر الكانج"[١] .

وتعلق الدكتورة ليلى عنان على هذا الكلام الصريح من نابليون فتقول رداً على أدعياء التنوير : " ولا نرى فى هذا الكلام الصريح أية إشارة إلى المشروع الحضارى الذى طالما سمعنا أنه الهدف الرئيسى من وجود الجيش الفرنسى فى مصر ... ومثل كل ما يمس الأسطورة لم يلحظ أحد هذه الصراحة فى الاعتراف بحقيقة نية الحملة على مصر .

هذا هو كلام نابليون نفسه ، الذى لم يفنده إلا أعداؤه وبالتالى لم يشكك فيه أحد حتى عصرنا هذا "[٢].

٢- "جان ميز" و "جورج ليجران" :

اشترك هذان المؤلفان فى تأليف كتاب جعلا عنوانه :"فى بلاد نابليون – مصر".

قسما الكتاب إلى جزأين وأفرداه فى كليهما للحديث عن الحملة من وجهة النظر الغربية .

ذكر "ميز" فى الجزء الأول من الكتاب أن الفرنسيين بعد احتلالهم لمصر أثقلوا كاهل أهلها بالضرائب الباهظة مما زاد من بؤسهم .. وذكر أن نابليون استعمل المكر والدهاء فى استلاب أموال الحجاج إلى بيت الله الحرام[٣] .

وفى الجزء الثانى تعرض "جورج ليجران" لبعثة العلماء ، ومضمونه أن البعثة كان واجبها الأول خدمة الجيش وأهدافه ، فقد ذكر أن "مونج وبرتولى وبونابرت"

---

[١] ص١٩٤ .

[٢] ص١٩٤-١٩٥.وراجع فى هذه الشخصية الحملة الفرنسية فى محكمة التاريخ ص١٥-٣٠من خلال كتاب آخر بعنوان :"مذكرات ما وراء القبر" .

[٣] انظر ص٢٢٥-٢٢٧ .

هم الذين ابتكروا الخطة التكميلية لإلحاق لجنة العلوم والفنون بـــالجيش المنتصـــر ، تكون مهمتها تحضير وتنفيذ استعمار مصر .

وذكر أن بونابرت كان يحث حكومة الإدارة فى فرنسا على أن تعهد إليه بجيـش من اختياره ولجنة من العلماء ، وتعهد لـــها بالاستيلاء على مالطـــة لحصانتـــها ، والاستيلاء على مصر الخصبة .. فالحملة إذن استعمارية بحتة بما فيها بعثة العلماء .. وقد أراد أن يصحبه فى الحملة الشعراء والمغنون والممثلون والراقصون والراقصـات ، لكنهم اعتذروا فى اللحظات الأخيرة ... لقد أراد نابليون بالعلماء وهؤلاء إنشـــاء مستعمرة مثالية تكون جديرة به وبالفلاسفة وبأصدقائه [١] .

وفضلا عن خدمة العلماء الذين صحبوا الحملة للجيش ، فقد كان هناك عمـــل آخر صرح به "ليجران" على لسان أحد علماء الحملة عند سفرهم إلى مصر هـــو إفادة فرنسا وحدها دون مصر بما يحصلون عليه من معلومات . يقـــول أحدهـــم مفتخرا : " كنا نشعر ببعض الغبطة كلما فكرنا أننا سننقل إلى وطننا كل نتـــائج العلم القديـــم للمصريين .كنا سنحاول القيام بغزوة حقيقية باسم الفنـــون .كنـــا سنعطى أخيرا ولأول مرة فكرة حقيقية وكاملة عن الآثار التى لم يتحـــدث عنـــها الرحالة القدامى والمعاصرون إلا بصورة غير مرضية " [٢] .

ويعلق المؤلف قائلا :" وبناء عليه ، فكلما مروا على أثر ، حفروا عليه كلمـــة "الفرنسيون منتصرون فى كل مكان ".[٣]

وعن كتاب "وصف مصر" الذى رفعه أدعياء التنوير إلى السماء ذكر المؤلف أنه كان إخفاء لـــهزيمة الحملة وفشل أهدافها كلها ، وأصبح هذا الكتاب — كما عـــبر

---

[١] انظر ص ٢٣٧ –٢٣٨ .

[٢] ص ٢٤٠ .

[٣] ص ٢٤٠ .

هو – الإنجاز الملموس الوحيد الذى تفخر به فرنسا بعد فشل الحملة [١].

وعن حجر رشيد الذى تكلموا عنه كثيرا روى "ليجران" أن الضابط المهندس "بوشار" اصطدم به بالمصادفة البحتة حين كان يقيم تحصينات طابية "سان-جوليان" [٢]. وأوضح أن الفرنسيين انبهروا بما شاهدوا من آثار مصرية ، حتى أن "ديسيه" طلب من بونابرت نقلها – أى سرقتها من موطنها الأصلى – إلى باريس .[٣]

وعن مصير المجمع العلمى الذي أقامه نابليون بمصر خدمة للجيش الفرنسى قال "ليجران" : " لكن هذه الجمعية الشهيرة لقيت بعد ذلك مصير الحملة نفسه وبعدما عادت إلى فرنسا ، أخذت تجتمع فى باريس ، ونشرت أبحاثها من العام الثامن من الثورة (١٧٩٩-١٨٠٠) إلى العام الحادى عشر منها (١٨٠٢-١٨٠٣)، وقد حل محلها بعد ذلك كتاب "وصف مصر الكبير" وانتهى تاريخ المعهد الفرنسى ." [٤] .

كما ذكر "ليجران" أن الجنود الفرنسيين كانوا يمرون على الأحياء ليسجلوا المنازل والسكان من أجل فرض ضريبة الأملاك.. لذا كانت العلاقة بين الشعب

---

(١) ص ٢٤١ .

(٢) ص٢٤١ . وهى قرب رشيد ، وكان ذلك عام (١٧٩٩م) وقد نقله الإنجليز إلى لندن بعد أخذه من أيدى الفرنسيين ، وهناك عكف العالم الفرنسى "فرانسوا شامبليون" الذى أقام بلندن سبعة عشر عاما ، على دراسة نقوشه ، وأخيرا اكتشف فك رموز الحروف الهيروغليفية عام (١٨٢٢م) .. والنص مصاغ بثلاث لغات : الهيروغليفية ، والديموطيقية ، واليونانية .. وهو عبارة عن شكر الكهنة الفرعونيين للملك "بطليموس الخامس" على اهتمامه بالمعابد . [انظر يوسف باشا القرمانلى والحملة الفرنسية على مصر . ص٢١١ ، بونابرت فى مصر ص١٩٠ ، ص٤٠١] .

(٣) ص٢٤٤ .

(٤) ص ٢٤٢-٢٤٣ .

والفرنسيين سيئة.. وكان أول مكان تعرض لـهجوم الثوار هو مكان رجال البعثة العلمية.[1]

وذكر أن العلماء حين رحيلهم اصطحبوا معهم صناديق بـها ثمرة أبحاثهم التى ضنوا بـها على مصر ، غير أنـهم تعرضوا فى الطريق لاستيلاء الجنـود عليـها ونـهبها ظنا منهم أن بـها جواهر نفيسة ، وأمرهم "مينو" بـالتخلص منـها ، وأخذ عليهم عهدا بألا يأخذوا شيئا معهم يفيد الموقـف السياسـى أو الحـربى لمصر .[2]

وأشار "ليجران" إلى نقطة جوهرية يطمسها أدعياء الثقافة دائما هـى تـأكيده على عدم وجود ارتباط بين العلماء الذين اصطحبتهم الحملـة والعلمـاء الذيـن استقدمهم محمد على إلى مصر لتحقيق النهضة التى أرادها ، فنحن مـن خـلال كلامه نجد مرتزقة أجبرتـهم ظروفهم الخاصة وظروف بلدهم على خدمة مصـر ولحساب واليها ، و فى المقابل نجد علماء جاءوا مع حملة لم تدم أكثر من ثـلاث سنوات وشهرين لينقلوا إلى فرنسا ثمرة أبحاثهم .

وتتساءل د.ليلى عنان ردا على هؤلاء الادعائيين قائلة : " فلماذا يطمس هـذا الفارق الجوهرى فى ظروف كل من الفريقين ، الذين عملا لأهداف هى فى الواقـع متناقصة ؟ "[3]

٣- "باستر" :

ألف "باستر" كتابه "بونابرت فى مصر" وهو من عنوانه حديث عـن نـابليون والفرنسيين فى مصر إبان احتلالـهم لـها ، وهو بما حوى من أغاليط يعد مرجعـا

---

(١) ص ٢٤٣ .

(٢) انظر ص ٢٤٥ .

(٣) ص ٢٤٥-٢٤٦ .

لأدعياء التنوير فى بلادنا .

لقد أعلمنا "باستر" من خلال موقف المصريين من الحملة أن نابليون فهم أن نظرية القرن الثامن عشر الفلسفية والإنسانية لم يكن لها مجال تطبيق فى الشرق.. وتعلق الدكتورة ليلى عنان قائلة : " هكذا كان الأمر إذن : بونابرت تلميذ إنسانية التنوير الذى جاء ليطبقها فى مصر فهم أن البلد دون هذا المستوى ، ولا يصلح معه الأسلوب الإنسانى لفلسفة القرن الثامن عشر .. إن كان بونابرت قد جار وهو فى مصر ، فالذنب ليس ذنبه ، بل ذنب الشعب المصرى الذى لم يفهم ، ولم يحترم إنسانية الشعب الغازى!!"[١]

وما قاله "باستر" عن مصر وموقفها ، قاله عن عكا وموقف أهلها من الحملة .[٢]

ونظر باستر للحملة شأنه شأن الكتاب الغربين وخاصة الفرنسيين على أنها حملة صليبية فى المقام الأول .[٣]

واعترف بأن حصاد الحملة كان هزيلا .[٤]

٤- "بينوا – ميشان" :

كتب "بينوا – ميشان" عام ١٩٦٦م كتاب "بونابرت فى مصر أو الحلم الذى لم يتحقق" شرح فيه أن حياة نابليون السياسية الحربية كلها كانت من أجل السيطرة على الشرق بطرقه المختلفة .

---

(١) ص ٢٥٢ .

(٢) ص ٢٥٣ .

(٣) ص ٢٥٤ .

(٤) ص ٢٥٩ .

وبدأ كتابه بإشارة "تاليران" إلى ضرورة غزو مصر قائلا:" كانت مصر مقاطعة فى الجمهورية الرومانية ، ويجب أن تصبح كذلك بالنسبة للجمهورية الفرنسية" .

" غزو الرمان كان سبب انهيار هذا البلد الجميل ، وفتح الفرنسيين سيكون سبب رخائه " ... "سرق الرومان مصر من ملوك اشتهروا بالآداب والفنون (...) وسيسلبها الفرنسيون من أبشع طغاة عرفهم التاريخ[١] (يقصد المماليك والعثمانيين المسلمين!!) . فهو إذن يصرح بأن استعمار مصر كان طمعا فى خيراتها من أجل رخاء فرنسا لا رخاء مصر ..

واعترف "بينوا" بأن الديوان الذى عقده نابليون بمصر كان لصالح الجيش الفرنسى وليس لصالح المصريين ، إذ بواسطته كانت الأوامر تصل إلى عامة الناس [٢] .

وكان يرى — حسب تعبيره – أن التطرف الدينى الإسلامى كان سبب انهزام الفرنسيين[٣] .. فهو يعد مقاومة المحتل الأجنبى تطرفا وتعصبا !! .

واعترف "بينوا" ببعض جرائم نابليون فى الشام حين اتجه إليها بعد غزوه لمصر فيقول عما حدث لأهل يافا :" المنازل نهبت ودمرت ، والنساء قد اغتصبن ، وذبح الجند المسلمون ."[٤]

والكتاب محشو بالأغاليط التى تعد — مع أغاليط الكتاب الفرنسيين الآخرين— مرجعا لأدعياء الثقافة المعاصرين .

---

(١) ص٢٦٠-٢٦١ .

(٢) انظر ص ٢٦٨ .

(٣) ص٢٦٨-٢٦٩ .

(٤) ص٢٦٩-٢٧٠ .

٥- "جورج سبيلمان" :

الجنرال "جورج سبيلمان" ضابط فرنسى تولى مسئوليات عسكرية وسياسية وإدارية فى أرض الإسلام لأكثر من ربع قرن ، وقد منحه هذا العمل فى بلاد المسلمين ما لم يمنح لغيره وقد أتاحت له هذه الفرصة دراسة البلاد التى وطئتها أقدام الفرنسيين عن كثب ، وإن كان الهوى قد سيطر على كتاباته شأنه فى ذلك شأن المؤرخين الغربيين .

والكتاب الذى ألفه ونشر عام ١٩٦٩م بعنوان :"نابليون والإسلام" قص فيه علاقة نابليون بالدول الإسلامية فى الشرق العربى وأحلامه باستعمارها[١].

ذكر سبيلمان أن هدف الحملة كان تحقيق الرواج التجارى لفرنسا وامتلاك زمام الأماكن الاستراتيجية التى تتمتع بها مصر[٢] .

كما أعترف بأن استعانة نابليون بالعلماء كان لسد حاجة الجيش ، أى ليس لأبناء مصر .[٣]

وأعلن فى الكتاب احتقاره للإسلام واتهامه بما ليس فيه مما يدل على أن الغرض الأساسى للحملة كان صليبيا ، فهو يقول :" وهكذا زاد مجد بونابرت ، فشعاع نور تسلل إلى ظلمات الإسلام ، وفتح فجوة فى البربرية ."[٤].

كان "سبيلمان" يرى ما رأته الجمهورية الثالثة فى فرنسا وهو على حسب تعبير د. ليلى عنان - : " أن الحضارة واحدة ، لا ثانى لها ، وهى الحضارة الأوربية، وأن التحضر هو الوصول إلى النمط الأوحد من الحياة فى كل أشكاله من

---

(١) ص ٢٧٥-٢٧٦ .

(٢) ص ٢٧٦-٢٧٧ .

(٣) ص ٢٧٨ .

(٤) ص٢٨٤ .

ثقافة وأسلوب حياة ، على أن يكون استيعاب تلك الحضارة بتوجيه من الدول المتحضرة وتحت سيطرتها . إنه الاستعمار فى أكثر صوره فجاجة كما شكل نظريته الفلسفية مفكرو القرن التاسع عشر وسياسيو الجمهورية الثالثة . وكان الكل مؤمنا بأن رسالتهم فى الحياة بل واجبهم المقدس هو تحضير الشعوب ولو بالقوة ، بل وبالقوة أولا ، وهو أمر طبيعى مادام الهدف الحقيقى هو الاستعمار الاستغلالى والحصول على موارد وأسواق بلاد أضعف من أن تدافع عن حريتها.“[1]

وفى الكتاب أثبت "سبيلمان" أن نابليون كان هدفه تحويل البحر المتوسط إلى بحر فرنسى حتى يتسنى له غزو البلاد التى تفصله عن الهند كى يصل إليها .“ [2]

٦- "ترانييه" و"كارمينيانى" :

أصدر المؤرخان الفرنسيان "جان ترانييه" و"ج.س.كارمينيانى" كتابا بعنوان : "حرب مصر" تكلما فيه عن الحملة ، وضمناه كما كبيرا من الرسومات واللوحات الملونة عددها (٣٧٣) منها (٤٢) بالألوان ، وهى رسوم يسيل لها لعاب أى مهتم بالحملة ، وكثيرها مبالغ فيه ، فهو يمجد العنصر الفرنسى ويحط من قدر العنصر المصرى والمملوكى المسلم .

يبدأ الكاتب بعرض أهداف الحملة وهى : فتح مصر ، ومشروعات خاصة بالقسطنطينية (كما يحلو له أن يسمى) ، وأهداف معينة بالنسبة للهند ، ودحر المماليك الظالمين (هكذا !!) وتحرير المستعبدين ، وعتق المسلمين (هكذا !!) وحماية التجار الفرنسيين ، وكان عددهم فى مدينة القاهرة ثلاثة فقط ، ودراسة الآثار على طبيعتها ، ثم التبادل والتحسينات الخ .. ثم أخذ يصف سياسة بونابرت

---

[1] ص٢٨٦ .

[2] ص٢٩١ .

فى مصر بانبهار شديد ..[١]

وبعد هذه المقدمة الخاصة "بترانييه" نراه يسرد علينا تاريخ الحملة منذ أن أصدرت حكومة "الإدارة" أمر التحرك للقائد العام الجديد والذى كانت تعبيراته من وحيه :

المادة الأولى : القائد العام لجيش الشرق يتوجه إلى مصر بقوات برية وبحرية ويستولى على البلد .

المادة الثانية : يطرد هذا القائد الإنجليز من كل ممتلكاتهم فى الشرق فى كل مكان يستطيع الوصول إليه ، ويدحض بالذات كل وكالات التجارة على البحر الأحمر .

المادة الثالثة : يقطع القائد برزخ السويس ويأخذ كل الترتيبات الضرورية ليؤكد ملكية الجمهورية الفرنسية الحرة المطلقة للبحر الأحمر .

أما **المادة الرابعة والخامسة** فتعلقتا بمعاملة أهل مصر واستعمال أسلوب المداراة فى ذلك ذرا للرماد فى العيون .. **والمادة السادسة** : منع طبع هذا القرار .[٢]

إن هذا الكلام من ترانييه يبين لنا بجلاء الهدف الحقيقى لفرنسا آنذاك .

واعترف بأن المصريين لفظوا المحتل الفرنسى ، وعرفوا قصده من وراء غزوه لبلادهم ، ومن ثم قامت الثورات فى الأقاليم بجانب الثورة فى القاهرة والإسكندرية[٣].

---

[١] ص ٢٩٤-٢٩٦ بتصرف .

[٢] ص٢٩٨-٢٩٩ .

[٣] ص٣٠٨-٣٠٩ باختصار .

٧- "جان تولار" :

"جان تولار" من الكتاب المعاصرين المؤرخين للحملة الفرنسية على مصر ، وهو كغيره من الكتاب الفرنسيين تأتى كتاباته دعاية سافرة للأمجاد الفرنسية وتحقير المصريين كى ينسج تلامذتهم من أدعياء الثقافة على منوالهم "حذوك النعل بالنعل" ، تقول الدكتورة ليلى عنان ربيبة التعليم الفرنسى فى المدارس الفرنسية والتى لم تتخل مع ذلك عن هويتها العربية الإسلامية التى تنازل عنها البعض :" لا يختلف "تولار" إذن منهجيا عن أسلافه ممن تبنوا النظرة المتعالية على الشعوب المستعمرة والتى كانت سائدة عند كل من كبر وتعلم وتشبع بفلسفة "الجمهورية الثالثة" القومية الاستعمارية قبل الحرب العالمية الثانية ، فهم يدلسون "بضمير مستريح" حسب التعبير الفرنسى ، ويتجاهلون ردود الأفعال الطبيعية لأى شعب يخضع للقوة الغاشمة ، ولا يفهمون ثورته على مستعمر يستغل ضعفه ، ولذا لا يعزون رفض المصريين للاستعمار الفرنسى إلا لسبب اختلاف الدين فقط ، ولا يذكرون الأفعال الاستفزازية للجند الفرنسيين ." [1]

ولأجل هذه النظرة المتعالية من الكتاب الفرنسيين على العرب ، فإن من يكتب منهم على غير ما يريده الأساتذة يتعرض للنقد اللاذع ويتهم بالتطرف الدينى كما حدث للدكتور رشاد رشدى الذى كتب من وجهة نظر قومية عن سلبيات الحملة على مصر فى جريدة الأهرام ، فوجه إليه "تولار" سهام نقده واتهامه ، لأن كتابات د.رشدى على حسب تعبيره :" نتيجة التعليم الدينى السلفى المتعنت الذى يتهم فرنسا بجلب سموم الغرب ، لأن رشاد رشدى يتهم الحملة بأنها أفقدت مصر هويتها ."[2]

---

[1] ص٣٢٥ .

[2] ص٣١٩ .

وهل يختلف هذا النقد من المؤرخين الفرنسيين عن نقد أدعياء الثقافة فى بلادنـــا لأصحاب الأقلام الوطنية النزيهة والأفكار الحرة النظيفة ؟! .

ولئن انتقد "تولار" دكتور رشاد رشدى فقد نصح المخرج "يوسف شــــاهين" بخصوص فيلمه عن الحملة الذى تشترك فرنسا فى إنتاجه أن يعى أن الحملة كـــانت تحمل بذور فتح قناة السويس ، وتنظيم مجرى النيل ، كما أنـــها تسببت فى صحوة مصر السياسية والاقتصادية ، واكتشاف ماضيها [١].

وتعرض "تولار" فى كتابه الشهير عن "نابليون أو أسطورة المنقذ" عـــام ١٩٨٧م لأهداف الحملة على مصر ، وهى نفس الأهداف التى صـــــرح بــــها الكتـــاب الآخرون الذين سبق ذكرهم آنفا .[٢]

واعترف "تولار" بأن البعثة العلمية التى صاحبت الحملة على مصر لم تكن أكـثر من تبرير للحملة .[٣]

كما اعترف بأن نابليون منح اليهود امتيازات خاصة فى مقابل وقوفهم بجـــانب جيش الحملة .[٤]

وصرح أيضا بأن العامل الدينى لدى المصريين وكذلك الشــــاميين كـــان وراء مقاومتهم للجيش الفرنسى وليس تأثير الإنجليز أو المماليك .[٥]

٨- "برتران سوليه" :

ألف "برتران سوليه" سلسلة كتب تحكى مغامرات شاب فى نهاية القرن الثـــامن

---

(١) ص٣٢٠ .

(٢) ص٣٢٠-٣٢١ .

(٣) ص٣٢٢ .

(٤) ص٣٢٣ .

(٥) ص٣١٦ .

عشر ، وهى سلسلة موجهة لسن (١٢) عاما وما بعدها ، ومنها الكتيب المنشور عام ١٩٨٨م والذى يحمل عنوانا باسم "فى مصر مع بونابرت" ، والكتاب مهتم بإبراز هدف الحملة ، وهو : الجيش الفرنسى للشرق فى طريقه إلى مصر ليحرر المصريين من طغيان المماليك (..) ، إنهم طغاة ، دكتاتوريون .. (هكذا) ، ونلاحظ أن كلمة "طغاة" وهى من مفردات الثورة فى حاجة إلى توضيح للجيل الجديد ، فتضاف إليها الكلمة الحديثة "دكتاتور" ليفهم المعنى ، فالقرن العشرون ضد الدكتاتورية كما كان الطغاة أعداء الثورة الكبرى فى القرن الثامن عشر ، فيصبح المماليك جديرين فعلا بالمحاربة .

والكتاب رغم هذا يعترف فيه مؤلفه بأعمال السطو والقتل التى قام بها الجند ، فيعرض ما تم من تدمير بسبب ضرب الأزهر بالمدافع ثم يقول :" حيث تنهار المنازل المجاورة على السلطان : الشيوخ منهم والشباب ، وأغلبهم لا علاقة له بالمعركة (..) جلادو الشرطة يعملون بهمة ونشاط ؛ مئات الجثث تلقى فى النيل ، يجرفها تيار النهر ، قد يصل عددها إلى الألفين ." .

وعندما تتحرك قوة عسكرية لتحصيل الميرى (...) ومصادرة الجياد والجاموس، تقول (الشابة الفرنسية — أحد عناصر الرواية) "هكذا كان يفعل المماليك" (!!).

ويعجب البطل (أحد عناصر الرواية) أثناء مجزرة سكان يافا لما حدث لجند الجيش الفرنسى : " ماذا أصاب جند الجمهورية الذين دربوا على الدفاع عن الوطن المهدد ، وهم حاملو قيم الحرية والعدالة ؟" ... !

وتستمر المجزرة والسلب والنهب ، والبطل فى حالة من الغثيان ، ويزداد الأمر سوءا ولا يكاد يصدق عينيه ، وهو يرى الجند يعدمون الأسرى الذين أسلموا حياتهم للجيش المنتصر "بهدوء تام" ، كانت النتيجة أن بعض الجند قالوا بعد

ذلك : " إن السماء تعاقبنا على هذه الجريمة ، فالطاعون يقتل عشرات الجند منذ ثلاثة أيام ." .

وبعد الهزيمة أمام عكا يعترف الجنود :" لقد أحرقنا القرى والمحاصيل ، وقتلنا كل شئ يتحرك " (١) .

واعترف "برتران سوليه" أن المصريين نظروا للجيش الفرنسى نظرة كره وعداء ؛ لأنهم محتلون معتدون مغتصبون (٢) .

٩- فرنسوا شارل ــ رو :

"فرانسوا شارل-رو" من مؤرخى الحملة على مصر ، ومن المدافعين عنها ، وله مقالتان إحداهما بعنوان : "الهدف الاستعمارى للحملة الفرنسية على مصر" ، نشرت عام ١٩٢٤م فى مجلة الدراسات النابليونية فى المجلد (٢٢) السنة (١٣) (يناير/يونيو) .. والثانية بعنوان : "السياسة الإسلامية لبونابرت" نشرت فى نفس المجلة التاريخية المتخصصة عام ١٩٢٥م فى السنة (١٤) المجلد (٢٤) (يناير/يونيو) .

تناول "فرانسوا" فى المقالة الأولى المذكرة السرية التى أعدتها حكومة الإدارة لتحديد الغرض من حملة نابليون على مصر ، وهو غرض سياسى واقتصادى وعسكرى فى آن واحد ، يسعى لإنشاء مستعمرة فرنسية فى مصر لاستغلال خيراتها على نحو ما فعل الرومان قبل ذلك ، ولتضييق الخناق على الإنجليز وفتح الباب أمام البلاد المجاورة لمصر فى آسيا وأفريقيا لفرنسا .

وأما عن البعثة العلمية ، فقد حلم نابليون بسرقة آثار مصر لإثراء التراث

---

(١) ص٣٢٩-٣٣٣ بتصرف .

(٢) ص٣٣٠-٣٣١ .

الفرنسى فى المجالين الفنى والعلمى ، والاستيلاء على القطع الفنية لتزيين متاحف فرنسا ، ولذا أضفى الطابع الفنى والعلمى على الحملة .

يتساءل "فرانسوا شارل" عن اللجنة العلمية التى اصطحبها بونابرت معه فيقول: " ترى ماذا كانت مهمة هذه اللجنة ؟ .

أولا وقبل كل شئ مساعدة الجيش ، ووضع العلم فى خدمة الحرب والحكومة ، والإسهام فى تنظيم وإدارة البلد الذى تم غزوه ، وإلى جانب ذلك على حد قول أحد الذين ساهموا فيها : إدخال فنون أوربا إلى شعب نصف همجى ونصف متحضر ، بلا صناعة وبلا تنوير علمى ، وأخيرا الكشف لأوربا عن مصر القديمة ومصر آنذاك ، مصر الفراعنة واليونان والرومان ومصر المماليك" .

وكشف فرانسوا عن جانب آخر للحملة المشؤومة على مصر تغافل عنه المهزومون من أدعياء الثقافة فى بلادنا ألا وهو "التنصير" فقد اختار نابليون "مونج" وأرسله قبل ذلك بقليل إلى الفاتيكان ليأخذ من لجنة التنصير هناك مطابع اللغات اليونانية والعربية والسريانية بكامل هيئتها من معدات وأحرف وعمال إضافة إلى الخرائط والكتب والوثائق ...

وصرح "فرانسوا" بأن بونابرت كان يود أن تضم اللجنة جميع التخصصات التى يمكنها أن تفيد فى الأعمال العلمية والفنية والأدبية ، على النحو الذى صرح به مؤرخون آخرون سبق ذكرهم فى هذه الدراسة .

وفى المقالة الثانية تناول "فرانسوا" السياسة الإسلامية التى اتبعها نابليون مع المسلمين فى مصر .. يقول : " إن السياسات التى كانت أفضل من لاحظت مهارة الشعوب المصرية هى تلك التى اعتبرت أن الدين هو العقبة الأساسية لاستقرار السلطات الفرنسية ، فقد كتب "فولنيه" قائلا عام ١٧٨٨م : لكى تستقر فى

مصر لا بد لك من شن ثلاثة حروب : الأولى : ضد إنجلترا ، والثانية : ضد البلد العالى ، والثالثة وهى أصعبها جميعا : ضد المسلمين الذين يكونون غالبية شعب ذلك البلاد " .

وينهى "فرانسوا" مقالته قائلا : " فلم يكن إلا لمثل بونابرت أن يعطى منذ أول لحظة احتكاك بين فرنسا وشمال أفريقيا ومع الإسلام أكمل النماذج لإدارة محلية وسياسية دينية جديدة تماما ومدفوعة إجمالا إلى أقصى حدود تم تحقيقها آنذاك ، وعلى أى حال لم يتخطها أحد إلا أن الإخضاع والتحالف الذين كانت تهدف إليها هذه السياسة المحلية والدينية ، كانت هى نفسها تهدف إلى تحقيق الهدف الاستعمارى الذى كان مسندا إلى الحملة الفرنسية فى الظروف الأمنية المطلوبة ، غير أن تنفيذ نفس هذا المخطط الذى ساندته على التوالى حيوية بونابرت ونشاطه لم يمكنه ألا يؤثر بدوره على استعدادات الأهالى تجاه السيطرة الفرنسية . " .

واضح من كلام "فرانسوا" وغيره من السابقين عليه أن الحملة الفرنسية على مصر كانت احتلالا واستعمارا .. وأنها عبارة عن عملية سياسية واقتصادية وعسكرية ، بل مشروع حقيقى لإنشاء مستعمرة ، وعمل ثورة حقيقية فى الحياة الاقتصادية لشعوب الغرب ، وتعويض فرنسا عن فقدها للمستعمرات الأمريكية ، وأن هدف الحملة هو جعل مصر تابعة لفرنسا ، وأن "فورييه" قد ساهم فى كتاب وصف مصر الذى تتغنى به تلك الشرذمة وتتخذه ذريعة للاحتفال كتب قائلا فى مقدمته : " إنه ساهم فى هذا العمل من نفس منطلق الأهداف الاستعمارية والإحياء الاقتصادى بالاستغلال العقلانى لمواردها" .. كما حدد "فرانسوا" وغيره أنه منذ هذه الحملة قد بدأت فكرة استخدام الحرب فى إثراء التراث الفنى والعلمى لفرنسا عن طريق لجنة العلوم والفنون التى كانت مهمتها بالتحديد مساعدة الجيش ووضع العلم فى خدمة الحرب والحكومة ، والإسهام فى

تنظيم وإدارة البلد الذى تم غزوه ، إلى جانب إدخال فنون أوربا إلى شعب همجـــى بلا تنوير ، الأمر الذى يعنى بداية فرض عملية التغريب واقتلاع الجذور والـــتراث .. كما يكشف المؤرخ حقيقة تلك المطبعة المزعومة التى تتغنى بـــها تلك الشـــرذمة ، وأنه قد أتى بـــها من الفاتيكان ومن لجنة التنصير بكل ما تتطلبـــه مـــن عتـــاد ومعـــدات ، وذلك لأن الدين الإسلامى هو العقبة الأساسية لاستقرار الســـلطات الفرنسية فى مصر .. وأن المجازر التى قام بـــها نابليون فى مصر وعكا هى أكمـــل النماذج لتحقيق الهدف الاستعمارى المسند إلى الحملة الفرنسية .[1]



---

(١) هذا النموذج الأخير من مقاله بعنوان : "الهدف الاستعمارى للحملة الفرنسية علـــى مصـــر والسياســـة الإسلامية لبونابرت" للدكتورة زينب عبد العزيز أســـتاذ الحضـــارة بـــآداب المنوفيـــة . جريـــدة الشـــعب ١٩٩٨/٣/٢٤ .

مهزلة الاحتفال بحملة نابليون

بانت لك الأغراض الحقيقية للحملة الفرنسية التى حركتها عن بلادها وجاءت لتحقيقها فى ديارنا : من وأد لليقظة الإسلامية ، وسرقة لنفائسنا العلمية ، ومن اعتداء على قدسية الأزهر وغيره من المساجد ، وتنكيل بقادة الأمة وبالشعب ، واستنزاف لخيرات البلاد بالضرائب الباهظة التى أثقلت كاهل الشعب ، وتربية لجيل من بنى جلدتنا يقوم بالدور الفرنسى فى ديارنا ، وتفتيت للوحدة الوطنية ، وقضاء على المظاهر العمرانية الجميلة التى ازدانت بها مصر ، وسعى لنشر البدع والمنكرات بين أبناء الأمة ، ونشر للسفور والخلاعة والمجون فى المجتمع المسلم ، وإفساد للبرلمان وتطويعه لتحقيق المآرب الاستعمارية . وهذا ما قد ظهر فى ثنايا كتابات المؤرخين الفرنسيين أنفسهم كما تقدم ، وظهر بجلاء للأمة زمن الحملة فاستجابت لنداء أهل الحل والعقد من أبناء الوطن ، ووقفت فى وجه المحتل الأجنبى وقاومته رغم الظروف الصعبة التى مرت بها تحت راية الإسلام لا تحت رايات أو شعارات أخرى ، وظلت صامدة فى مقاومتها مدة ثلاث سنين وشهرين[1] حتى دحرته بفضل الله تعالى ، فأخذ عصاه ورحل بأذنابه عن ديارنا[2] . وتنفس

(١) أبدى أبناء مصر فى الوجهين البحرى والقبلى ضروبا من البسالة فى مقاومة المحتل الغازى بكل الوسائل الممكنة آنذاك على ما هو مفصل فى مظانه ، وظهرت صور من البطولات النادرة التى أبهرت المحتلين بما لا يمكن حصره ولا يتسع هذا المؤلف لذكره ، إذ له غرض آخر غير غرض سرد الحوادث ، وإليك مثالا لهذه الصور من الوجه القبلى .. ففى قرية "الفقاعى" مركز "ببا" هاجم فتى يبلغ من العمر (١٢) عاما جنديا فرنسيا وخطف بندقيته .. ولكن جنديا آخر أسرع فضربه بالسيف على ذراعه ، ثم أخذه إلى الجنرال "ديزيه" ، فلما سأله القائد عما فعل ، أبدى شجاعة فائقة ، واعترف بفعلته . وأبى أن يدل على محرضين له . ثم قال للقائد : "إليك رأسى فأمر بقطعه" ، وأعجب القائد ديزيه بهذا الفتى وبما أبداه من شجاعة وقوة ، وثقة بنفسه ، ثم أمر بضربه ثلاثين جلدة ، تحملها صابرا ، جلدا ، لا يتململ ، ولا يتوجع . [مصر فى القرن الثامن عشر . محمود الشرقاوى ٨١/٣ ، بونابرت فى مصر ص٢٥٥] . وشارك أبناء جدة وينبع من الجزيرة العربية إخوانهم فى هذه المقاومة . [انظر بونابرت فى مصر . ص٢٥٨-٢٦٠] .

(٢) انظر الجبرتى ٤٧٦/٢ .

المسلمون الصعداء برحيله ، ونظفوا البلاد من قذاراته ، يقول الجبرتى عن اليوم الذى رحل فيه المحتلون وهو (١٩ صفر ١٢١٦هـ) .

" وفى ذلك اليوم أيضا فتحوا باب الجامع الأزهر ، وشرعوا فى كنسه وتنظيفه. "[١] .

وهذه العبارة من الرجل ترمز إلى تطهيره وتنظيفه بعد أن تخلصت مصر من أدرانها المتمثلة فى دنس الاحتلال الفرنسى ، وعادت مرة ثانية إلى طهارة العروبة والإسلام الذى هو قدرها إلى أن تقوم الساعة بإذن الله تعالى .

وفرحت مصر قيادة وشعبا بعودتها إلى الدولة الأم مرة ثانية : الدولة العثمانية[٢] التى هى رمز وحدتها وقوتها ، ورحب أبناؤها بعودة المماليك والولاة العثمانيين إليهم [٣] .

---

(١) عجائب الآثار ٢/٤٧٦ .

(٢) اعتبرت الدولة العثمانية حملة نابليون على مصر والشام حملة على الباب العالى نفسه ، فاشتبكت القوات العثمانية مع الفرنسيين فى معارك كثيرة فى جهات متعددة ، رغم وجود حلف بينهما ، ورغم ما تظاهر به نابليون فى أول الأمر . فقد وقعت معركة بين الطرفين فى العريش انتهت بهزيمة العثمانيين والمماليك أمام قوات نابليون. [انظر بونابرت فى مصر ص٢٨٤-٢٨٧] . ومعركة يافا التى قضى على كثير من حاميتها بسبب مفاجئة نابليون لها فى الليل ، وارتكب هناك مذابح بشعة . [المصدر السابق ص٢٨٧-٢٩٥] . ومعركة مدينة عكا التى حاصر نابليون حاميتها ، غير ألها -بقيادة أحمد الجزار- صمدت واستماتت فى الدفاع حتى أجبرت نابليون على العودة إلى مصر مرة ثانية يجر وراءه خزى الهزيمة . [انظر المصدر السابق ص٢٩٥-٣٢٧] . وموقعة أبى قير الثانية عقب عودة نابليون من سورية ، وقامت بين الطرفين حرب شرسة أبدى فيها الأتراك بسالة ظاهرة ، غير ألها انتهت بهزيمة العثمانيين . [انظر المصدر نفسه ص٣٣٣-٣٣٦] . ثم موقعة عين شمس التى وقعت عام (١٨٠٠م) ولقيت هى الأخرى المصير نفسه . [انظر المصدر نفسه ص٣٧٠-٣٧١] .

وما من شك فى أن هذه المعارك المتتابعة فضلا عن مقاومة الأهالى قد قضت على شوكة الفرنسيين وعجلت برحيلهم . وهذا يرد الزعم القائل بأن الدولة العثمانية تخلت عن مصر فى هذه المحنة ، ولم تشترك فى الدفاع عنها، وتركت الأهالى يلاقون وحدهم ويلات الغزو .

(٣) انظر الجبرتى فى ذلك ٢/٤٧٥ .

فهل يعقل بعد هذه الحقائق التاريخية الموثقة التى لا يمارى فيها إلا مكابر معـــاند أن يطلع علينا أقوام يحتفلون بمرور مائتى عام على حملة نابليون على مصر مدعـــين أنـــها كانت تنويرا لنا ؟! .

الحق أن هذا عبث بعقول الأمة ؛ لأنه تزوير للتاريخ وقلب للحقائق ، وخـــبرنى بربك من فى الدنيا مهما كانت ديانته أو ثقافته يحتفل بعدوه الذى غزا دياره وسعى فيها فسادا ، وتعددت مآسيه حتى ملأت السهل والجبل ؟! .

حقا لقد صدق المفكر المسلم "رجاء جارودى" الذى حضـــر إلى مصـــر عـــام (١٩٩٨م) بمناسبة المعرض الدولى للكتاب ، وسأله الأستاذ فهمى هويدى عن رأيـه فى احتفال مصر وفرنسا فى ذكرى الاحتلال بمرور (٢٠٠) سنة علـــى العلاقـــات الثقافية بين البلدين ، فقال له : " لم أصدق عينى حين قرأت الخبر ، وأعتبره حماقـة لا نظير لـــها ." [1] .

لقد كان هناك من الأحداث التى رفعت رأس مصر إسلاميا وعالميا ، وأظـــهرت مكانتها العسكرية والحضارية ، ما هو أولى وأهم لنا مثل : فتح عمرو بن العـــاص لـــها ، وهذه نقطة البدء فى دخولـــها عصر التنوير الحقيقـــى ، ولـــولاه لظلـــت تتخبط فى دياجير الظلام . ومعركة حطين (٥٨٣هـــ/١١٨٧م) بقيـــادة النـــاصر صلاح الدين الأيوبى ، ومعركة عين جالوت (٦٥٨هـــ/١٢٦٠م) بقيادة المظفـــر قطز وكلتاهمـــا ردتـــا جيـــوش الظـــلام ، وحررتـــا المقدســـات مـــن أيـــدى المغتصبين – صليبين ومغولا – أليست هذه الأحداث وغيرها المظهرة لمجـــد الأمـــة ومكانة مصر أولى بمثل هذه الاحتفالات ؟! .

ثم إذا كانت مصر قد شاركت فرنسا بـــهذا الاحتفال ، فهل ردت فرنسا على

---

(١) من مقالته بجريدة الأهرام الصادرة يوم الثلاثاء بتاريخ ١٩٩٨/٢/١٧ .

هذا الكرم ولو على سبيل المجاملة فاحتفلت بمرور أربعة عشر قرنا على دخول المسلمين فرنسا واحتلالهم أكثر من نصفها بقيادة "السمح بن مالك" ومن بعده "عنبسة" ؟! .

هل جاملتنا فاحتفلت بموقعة بلاط الشهداء أو "توربواتيه" التى حدثت فى هذه المنطقة بقلب فرنسا أوائل رمضان عام (١١٤هـ/٧٣٢م) بين الجيش الإسلامى التنويرى بقيادة "عبد الرحمن الغافقى" والجيش الفرنسى الهمجى بقيادة "شارل مارتل" والتى انتهت باستشهاد "الغافقى" وانسحاب الجيش الإسلامى إلى مدينة "سبتماية" [1] الأمر الذى أخر دخولها النور والحضارة لمدة عشرة قرون حتى عصر النهضة ؟! ، وهل يستطيع هؤلاء التنويريون إقناع فرنسا بذلك ؟! .

وإن تعجب فعجبك من رجل مثل فؤاد زكريا الذى برر حملة نابليون على مصر بوضعه أوجه شبه بينها وبين ما فعله عبد الناصر حين جرد جيشا إلى اليمن .

فعبد الناصر قاد حملة عسكرية إلى اليمن كما فعل من قبل نابليون بمصر ، وهو قد أخذ معه مدرسين إلى اليمن مثلما جاء جاء نابليون معه بالمطبعة إلى مصر [2]!! .

وهذا تبرير فى غير موضعه تماما ، إذ لم يوافق أحد من العقلاء على ما فعله جمال فى اليمن ، والحملة إن جاز التعبير كانت ضربا من العنتريات التى لم يكن من ورائها هدف اللهم إلا تصدير المذهب الاشتراكى الفاشل الذى مكن باليمن زمنا

---

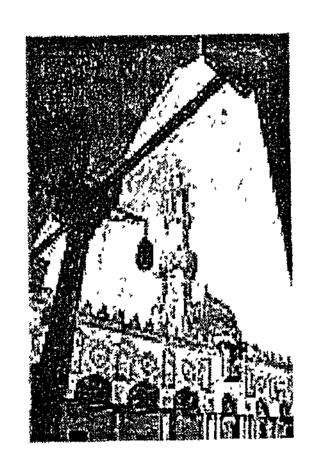
(١) راجع مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام ص١٤٣-١٥١ ، مقالة "هل تحتفل فرنسا بحملة عبد الرحمن الغافقى" للأستاذ الدكتور يحى هاشم فرغل . جريدة الشعب ١٩٩٨/٩/١م .

(٢) فى مقالة له بتاريخ ١٩٩٨/١/٣م تحت عنوان "دهاء التاريخ" الذى استوحاه من الفيلسوف الألمانى "هيجل". راجع مقالة : "قراءة فى المقولات المروجة للاحتفالية بالحملة الفرنسية" هدى مكاوى . الشعب ١٩٩٨/٣/٢ .

لطغمة من المتسلطين الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار . كما أنها أضعفت قوة مصر ، وأضاعت هيبتها بين الدول ، وبددت طاقة شبابها بل وذهب الكثير منهم صرعى معركة لا ناقة لهم فيها ولا جمل ، وكانت هذه من الأسباب التي أصابتنا بانتكاسة (١٩٦٧م) أمام اليهود الملاعين ، ويستطيع القارئ أن يجد تفاصيل ذلك في كتاب "مذبحة الأبرياء في ٥ يونية" للكاتب الصحفي الأستاذ وجيه أبو ذكرى .

أما المدرسون الذين زعم الكاتب أن عبد الناصر أخذهم معه ، فالصحيح أن المدرسين الذين ذهبوا إلى اليمن ، كانوا مثل إخوانهم الذين ذهبوا إلى الجزائر وغيرها من بقية دول الخليج آنذاك ، فهؤلاء جميعاً ذهبوا بناء على طلب حكومات هذه الدول لتعليم أبناءهم في المراحل التعليمية المختلفة دون أن تكون هناك علاقة بينهم وبين الجيش الذاهب للقتال ، إلا ما كان من النفر القليل الذى ذهب لترويج الاشتراكية هناك ، وهؤلاء كانوا قلة وسط الكثرة التي ذهبت للتعليم حقاً .

وأما المطبعة المظلومة المزعومة ، فقد سبق بيان مصدرها ووظيفتها ومآلها بما يدحض زعم الكاتب .



الخاتمة

بان لك أخى الكريم على صفحات هذا الكتاب الربط الكامل بين الحملتين الصليبيتين على مصر ، رغم الفارق الزمنى بينهما : الأولى منظرة وهى الحملة الصليبية السابعة بقيادة القديس لويس التاسع التى اكتسحت جزءا غاليا من ديارنا ، وكان قصدها الاستيلاء على مقدساتنا واستتراف خيراتنا وإعادتنا إلى حياة الظلام مرة أخرى ، غير أن الله تعالى الذى تداركت رحمته العباد والبلاد بعث فى الأمة روح الجهاد ، فهبت من سباتها وتعالت على خلافاتها وضعفها ، يقودها الحكام والعلماء وسادة الناس ، وقاومت المحتل الغازى حتى أنزلت به الهزيمة الساحقة . غير أن العدو لم يتوقف ، فسرعان ما لعق شيطانه لويس جراحه وشرع فى وضع مخططه الرهيب للغرب الصليبى ، ومرت القرون حتى سنحت الفرصة لابن الثورة الفرنسية ، فقام نابليون فى العصر الحديث بحملته الصليبية على مصر تسانده جيوش الاستشراق تنفيذا للمخطط اللويسى ، وعاث فيها فسادا ثلاثة أعوام وشهرين ، لقى فى أثنائها مقاومة الأهالى من العلماء والتجار والمماليك ومن أرسلتهم الدولة العثمانية ، حتى تطهرت مصر من أرجاسهم ، فخرجوا يجرون ورائهم أذيال الخزى والهزيمة دون أن يتركوا أثرا نافعا اللهم إلا المآسى التى سبق ذكرها على صفحات هذا الكتاب .

واليوم وبعد مرور مائتى عام يأتى المهزمون فكريا المولعون بكل ما هو غربى ، يريدون منا أن نضيع هويتنا ونلغى ذاكرتنا التى تمثل أصالتنا العقدية والفكرية والأخلاقية والتاريخية ، بل والعصرية أيضا لنذوب فى غيرنا ونكون تابعين لهم فى كل شئ ، حلوا كان هذا الشىء أو مرا ، خيرا كان أو شرا .

وصدق رسول الله ﷺ الذى حذر الأمة من هذه التبعية ، ونبهها من عبث أمثال هؤلاء .

فعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « **لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا شبرا ، وذراعا ذراعا ، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم** . قلنا يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : **فمن ؟** .»[١]

قال عياض :" الشبر والذراع والطريق ودخول الجحر تمثيل للاقتداء بهم فى كل شئ مما نهى الشرع عنه وذمه ."[٢]

وقوله ﷺ : « **فمن** » هو استفهام إنكار ، والتقدير : فمن هم غير أولئك .[٣]

فهل يريد أدعياء التنوير منا أن نسلك جحر الضب على ضيقه وتعرجه وظلامه ؟! وهل تتنبه الأمة لخطر ما يحاولون جرنا إليه حتى ننسلخ من ديننا ؟! .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

---

(١) الصحيح على الفتح ٦٦/٢٨ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب قول النبى صلى الله عليه وسلم لتتبعن سنن من كان قبلكم .

(٢) الفتح على الصحيح ٦٦/٢٨.

(٣) المصدر السابق ٢٨ /٦٦.

ثبت بمراجع الكتاب .

١- القرآن الكريم .

٢- أثر الحروب الصليبية على الفكر الغربي الحديث . محمد أسد . ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م .

٣- أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ . القضية الفلسطينية . د . جمال عبد الهادى وزوجته . دار الوفاء . الأولى . ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م .

٤- أسس نظام الحكم الإسلامى وخصائصه . د. فرج محمد الوصيف . إياك كوبى سنتر . المنصورة . الأولى ١٤١٥هـ/١٩٩٥م .

٥- الإسلام عبر التاريخ انتصارات وانتكاسات .عبد الغنى سعيد . القاهرة للثقافة العربية . بدون .

٦- البداية والنهاية . ابن كثير . دار الفكر العربى . بدون .

٧- بونابرت فى مصر . ج.كرستوفر هيرولد . ترجمة فؤاد اندراوس . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨م .

٨- تاريخ الرسل والملوك . الطبرى دار المعارف . الثالثة . بدون .

٩- تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار . الجبرتى . بيروت . بدون .

١٠- تاريخ الدولة العلية العثمانية . محمد فريد بك دار الجيل . بيروت . ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م .

١١- تاريخ العالم الإسلامى . د. إبراهيم العدوى . مكتبة الأنجلو ١٩٨٦م.

١٢- التاريخ الإسلامى آفاقه السياسية وأبعاده الحضارية . د. إبراهيم

العدوى . مكتبة الأنجلو . بدون .

١٣- تاريخ الحركة القومية وتطوير نظام الحكم فى مصر . عبد الرحمن الرفعى. دار المعارف . جـ١ السادسة ، جـ٢ الخامسة .

١٤- التاريخ الإسلامى . محمود شاكر . المكتب الإسلامى . الثانية . ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

١٥- تباشير النهضة فى العالم الإسلامى . د. محمد ضياء الدين الريس . دار الأنصار . الثالثة . بدون .

١٦- حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة . السيوطى . عيسى الحلبى . الأولى . ١٣٨٧هـ/١٩٦٨م .

١٧- حضارة العرب . غوستاف لوبون . ترجمة عادل زعيتر . لجنة التأليف والترجمة والنشر . ١٩٤٥م .

١٨- الحملة الفرنسية بين الأسطورة والحقيقة د. ليلى عنان دار الهلال (٥٠٠) ١٩٩٢م .

١٩- الحملة الفرنسية تنوير أم تزوير . د. ليلى عنان . دار الهلال (٥٦٧) ١٩٩٨م .

٢٠- الحملة الفرنسية فى محكمة التاريخ . الجزء الثانى . د. ليلى عنان . دار الهلال . العدد (٥٧٤) . جمادى الثانية ١٤١٩هـ /أكتوبر ١٩٩٨م .

٢١- الخطط . المقريزى . دار التحرير . بدون .

٢٢- دولة الإسلام فى الأندلس من الفتح إلى بداية عهد الناصر محمد عبد الله عنان . مكتبة الخانجى . الرابعة ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م .

٢٣- رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا . محمود شاكر . دار الهلال (٤٨٩) ١٩٩١م .

٢٤- صحيح البخارى . الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى . دار الشعب . بدون .

٢٥- صحيح مسلم بشرح النووى . دار الريان للتراث . القاهرة . الأولى . ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م . المطبعة المصرية ومكتبتها . بدون .

٢٦- العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها فى الحياة الإسلامية المعاصرة . د. سفر الحوالى . مركز البحث العلمى وإحياء التراث الإسلامى . السعودية . بدون .

٢٧- الغزو الثقافى يمتد فى فراغنا . محمد الغزالى . دار الصحوة . ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م .

٢٨- الغزو الصليبى والعالم الإسلامى د. على عبد الحليم محمود . دار التوزيع والنشر الإسلامية . الأولى . ١٤١٤هـ/١٩٩٣م .

٢٩- فتح البارى شرح صحيح البخارى . ابن حجر العسقلانى . دار الريان للتراث . الأولى . ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م ، مكتبة الكليات الأزهرية ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .

٣٠- فن الحرب الإسلامى أيام الحروب الصليبية . بسام العسلى . دار الفكر. بيروت . الأولى ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

٣١- قضية تحرير المرأة . محمد قطب . مكتبة السنة بالقاهرة . الأولى ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

٣٢- المؤامرة على المرأة المسلمة تاريخ ووثائق . د. سيد فـــرج . دار الوفـــاء الأولى ١٤١١هـ/١٩٩١م .

٣٣- مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية . محمد عبد الله عنان . الـــهيئة المصرية العامة للكتاب .

٣٤- مصر فى عصر الأيوبيين . د.السيد الباز العريـــنى . مطبعـــة الكيـــلانى الصغير بدون .

٣٥- معركة المصحف فى العالم الإسلامى . محمـــد الغـــزالى . دار الكتـــب الحديثة. الثانية ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م .

٣٦- معالم التاريخ الإسلامى المعاصر . أنور الجندى . دار الاعتصام . بدون.

٣٧- موسوعة تاريخ مصر . أحمد حسين . دار الشعب . بدون .

٣٨- موسوعة التاريخ الإسلامى و الحضارة الإسلامية . د. أحمـــد شـــلبى . مكتبة النهضة المصرية . السادسة . ١٩٨٣م .

٣٩- المنصورة قـــاهرة الصليبيـــين . نقابـــة الأطبـــاء بالدقهليـــة . الأولى . ١٤١٨هـ/١٩٩٨م .

٤٠- مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام . محمد عبد الله عنـــــان . الخـــانجى . الرابعة . ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م .

٤١- مصر فى القرن الثامن عشر . محمود الشرقاوى . الأنجلو . ١٩٥٦م .

٤٢- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . ابن تغردى بردى . الأتـــلبكى . دار الكتب . بدون .

٤٣- نابليون فى الأزهر . د. نجيب الكيلانى . المختار الإسلامى . بدون .

٤٤- وحي القلم . مصطفى صادق الرافعي . دار الكتاب العربي . بـيروت . بدون .

٤٥- ودخلت الخيل الأزهر . محمد جلال كشك . الزهراء للإعلام العـربي . الثالثة ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .

٤٦- يوسف باشا القرمانلي والحملة الفرنسية علـى مصـر . د. محمـد عبد الكريم الوافي . المنشأة العامة للنشـر والتوزيـع . ليبيـا . الأولى . ١٣٩٣هـ/١٩٨٤م.

٤٧- الأهرام (الجريدة) ١٧/٢/١٩٩٨م .

٤٨- الأزهر (المجلة) ربيع الأول ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

٤٩- الشعب (الجريدة) ١/٩/١٩٩٨م ، ٢/٣/١٩٩٨م .

فهرست الموضوعات